

حسان بن ثابت

شاعر الرسول

بقلم

الدكتور سيد حنفى حسين

مؤسسة الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للألف والنسخ والطباعة والنشر

مُقْتَدِمَةٌ

قد يسهل على الباحث أن يترجم حياة عالم متخصص ، أو مصلح اجتماعي ، أو قائد عسكري ، ولكن أن يترجم حياة فنان ، وشاعر بصفة خاصة ، فهذا وجه الصعوبة .

فالباحث حينما يعرض لحياة العالم المتخصص ، أو المصلح الاجتماعي ، أو القائد العسكري فانما يعرض لتطور مراحل حياته ، مدققا في مظاهر نبوغه العلمي من خلال موضوعات خارجة عن ذاته يمكن التحقق منها ، ومعاينتها معاينة مباشرة ، بل قد يصل الأمر الى التحقق من هذا النبوغ تحقيقا معمليا يصل فيه الى قطع الشك باليقين . أما حين يعرض الباحث لفنان شاعر مثلا فلن يجد الا متاهات أمامه ، عليه أن يعرف طريقه خلالها ، وأخطر هذه المتاهات هي متاهات النفس الانسانية التي تبدع الموضوع الفني من خلال دوافع شديدة التشابك ، ومشاعر عظيمة التعقيد ، كلما حاول أن يمسك أول خيط منها ليقوده الى نهاية ما ، أسلمه هذا الخيط الى خيوط كثيرة لا يعرف أيها يقوده الى طريقه .

والباحث حينما يحاول أن يسبر غور نفسية هذا الفنان فعليه أن يستعد لذلك استعدادا خاصا ، ثم عليه بعد ذلك أن يعرف أن ما كان يظنه في بداية الأمر من خصائص هذه النفس قد ينتهي

الى عكسه هذا اذا ما وصل الى شىء فى نهاية الطريق ، وقد لا يصل الى شىء أيضا .

وربما كان أسهل هذه المخاطر اجتيازها هو الموضوع الفنى نفسه ، فالقصيدة سوف تقول له شيئا لا شك فى ذلك ، وان كان ما يمكن أن تقوله له قد لا تقوله لغيره ، أو تقوله بشكل مختلف ، ورغم ذلك فهناك موضوع خارجى يمكن التحقق منه ، ويمكن استمداد الأحكام منه أيضا ، بل وقد يخضعه لبعض التجارب العملية ان أراد أن يظهر بمظهر العلماء التجريبيين ، ولكن .. ماذا يكون موقف الباحث اذا كان قد مر على الشاعر ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن على وفاته ، ولم تعد لدينا أخبار تحدثنا عنه الا أحاديث عابرة كتلك التى كان يتسلى بها المثقفون الأرستقراطيون فى قصورهم لقضاء سهراتهم كوسيلة من وسائل اللهو ، ولون من ألوان المتعة — أو مواقف نقدية ولغوية اهتم بها علماء لم يكن أكثر همهم يزيد — اذا عرض للشاعر — الا أن يفسر بيت من شعره استعمالا لغويا معينا ، أو صورة بلاغية مرصودة ، فلم يكن فنه فى طبيعته وقيمه يثير فيه أدنى شعور بالجمال المطلق غير المحدود باللغة أو البلاغة اللفظية أو التقسيم المنطقى لأصناف الأخيلة . وقد يزيد الأمر تعقيدا أن تقف بعض الفرق الدينية أو الأحزاب السياسية من هذا الشاعر موقف المستغل لطاقاته ومركزه لتكسب تأييدا خاصا وذلك باضافة مالم ينظمه فى تمجيدها أو تأييد معتقدها الى دفتى ديوانه . ذلك هو موقف الباحث من شاعر كحسان بن ثابت الأنصارى !

كان هذا الشاعر قد بلغ من العمر ما يقرب من ستين عاما عند بداية التاريخ الهجرى ، ثم اقتطع منه بعد ذلك أربعين عاما آخرين ، ومعنى هذا أن الشاعر عاش نصف عمره فى الجاهلية يستلهم من صحراواتها قيم الفتوة وعنجهية البداوة ، ويرعى فيها ومن الضراوة ومرارة القتال ، ثم اذا هو يعيش نصف عمره الآخر فى الاسلام يستحلب حلاوة العقيدة ورحيق الأخوة ، ويستمتع بصبا الأمن ونعيم السلام . واذا كان حسان قد شارك فى آخر عمره فى اضافة بعض أعواد الحطب الى حريق الفتنة التى ثارت أيام الخليفة الثالث حتى بداية خلافة الأمويين فقد كانت النيران مشتعلة سواء أضاف أعواده أو لم يضيفها ، فالحريق يضرى ، وحطبه تجمعه كل الأمصار !

حياته اذن طويلة خصبة ، مليئة بالأحداث والتغيرات ، وكان على الباحث الذى يريد أن يستوفى ترجمة لها أن يرصد كل ذلك ، وأن يسجله بأمانة بقدر ما تمده المصادر من أخبار ، وبقدر ما يصور له شعره من أحداث .

غير أن أخطر ما كان يخاف منه أن يجترىء فى التفسير ، وخاصة أن الشاعر قد أخذ عند المؤرخين المسلمين مكانة خاصة شابها شئ من الاحترام الشديد زاد على توالى الأزمنة وتقادم الأيام لعلاقته بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ولصلته بالدعوة الاسلامية وبكبار الصحابة والتابعين . لذلك التزم الباحث ما تقوله النصوص القديمة مقارنا بينها ، مفاضلا بين دلالاتها ،

متخذاً موقف الحيدة العلمية التى تنهج النهج السليم فى العرض
والدراسة والاستدلال .

واذا كان الهدف أخيراً أن تُعرض حياة هذا الشاعر العظيم
عرضاً بسيطاً واضحاً خالياً من الجفاف العلمى ، والاسهاب فى
المقدمات ، فقد حاولت فى نفس الوقت أن أهتم بالمنهج والاعتماد
على النصوص الشعرية فى التفسير وخاصة لقلة الأخبار التى كان
يمكن أن تغنى عن الاكثار من ايراد هذه النصوص .
والله الموفق .

دكتور سيد حنفى حسنين

العباسية فى نوفمبر ١٩٦٣

تمهيد

أرى لزاما علىّ قبل أن أبدأ في الترجمة لحياة هذا الشاعر أن أقف من ديوان شعره موقفا خاصا تفرضه علىّ الأمانة العلمية ، وأن أبسط للقارئ مدى التوثيق الذى يناله هذا الشعر فى نسبته الى صاحبه .

ان تأخر عصر تدوين الشعر الى نهاية القرن الأول كان سببا فى ضياع شعر كثير للشعراء الجاهليين المخضرمين ، وهم الجاهليون الذين امتد بهم العمر فعاصروا الدعوة الاسلامية وربما عاصروا خلافة الراشدين كحسان بن ثابت .

وكانت هناك أسباب كثيرة أدت الى التأخر فى تدوين الشعر ، ربما كان أهمها أن العرب فى جاهليتها لم تكن تألف تدوين الشعر الا فى بعض الامارات الشمالية ثم انشغلت أثناء الدعوة الاسلامية وأثناء حروب الفتح عن التفرغ لهذا العمل أيضا ، ولم يبدأ الالتباه اليه الا فى أواخر القرن الأول الهجرى عندما هدأت الحروب وخمدت الفتن ، وأخذ العلماء يجمعون الشعر من ألسنة الرواة الباقين الذين يفدون على المدن ، أو ينزحون الى البوادر يبحثون عن الأعراب الذين ما زالوا يحفظون تراثهم القديم .

ورغم اختلاف النظريات حول مدى ما دونه الجاهليون من

تراثهم ، وحول أسباب تأخر التدوين الى نهاية القرن الأول ، فالنتيجة التى يتفق عليها هؤلاء المختلفون أن شعرا كثيرا قد ضاع ولم يتمكن العلماء من تدوينه ، وأن شعرا كثيرا وضعه الرواة على ألسنة بعض الشعراء لأسباب تختلف بواعثها بين دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

فاذا جئنا لشعر حسان خاصة لتبين موقعه من كل ذلك فسنجد أن شعره تعرض لتلك الأزمة التى تعرض لها شعراء عصره ، بل لقد فاق تعرضه غيره وذلك لمكانة حسان من نفوس المسلمين . ويمكننا أن نلخص أسباب الوضع فى شعره باختصار فى النقاط الآتية .

١ - الخصومات بين العشائر القرشية :

يقول ابن سلام « حسان بن ثابت كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه مالم يحمل على أحد لما تعاضت قريش واستبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تنقى » ويعنى ابن سلام بهذا أنه لما اضطرت بطون قريش منذ فتنة عثمان أخذت تصنع أشعارا مختلفة على لسان حسان ، فمن ذلك قصيدة فى هجاء أبى لهب يقول عنها سعيد بن عبد الرحمن بن حسان : ليست هذه الأبيات من قول حسان ، وانما وضعت عليه . وهى تجرى على هذا النحو :

فلو كنت حرا من أكارم هاشم
وأشرافها منها منعت المظالم

ولكن لحيانا أبوك ورثته

ومأوى الخنا منهم فدع عنك هاشما

سما هاشم للمكرمات وللعللا

وغودرت في كاب من اللؤم جاثما

ومنها أيضا الأبيات التي وضعت على لسان حسان في هجاء

بنى مخزوم والتي يقول فيها :

كلاب وتيم ألصقا ابن أخيهما

ولولاهما كانوا عبيد بنى بكر

يقول العدوى — أحد علماء القرن الثالث — ليست هذه

الأبيات بمعروفة لحسان ومخزوم أثبت وأشهر في قريش من أن

تشتم لأن جدة رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى مخزوم .

وقال : سمعت مشايخ قريش يقولون ان ابراهيم بن هشام

المخزومي كان بعث الى محمد بن اسحق — مؤلف السيرة النبوية

فوضع في عنقه جبلا وأخرجه من مسجد رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فصير ابن اسحق هذه الأبيات — وهي مصنوعة — في

المغازي . قال : وكثير مما جاء به ابن اسحق من الشعر في المغازي

مدخول لم يروه أبو عمرو ولا ابن الأعرابي ولا أبو عبيدة

ولا أبو زيد الأنصاري .

٢ - الخصومات السياسية :

كانت الفرق السياسية منذ خلافة عثمان تختصم اختصاما

شديدا ، وكانت الخصومة في أول الأمر بين معاوية ومن يتبعه

من الأمويين وعلى ومن يتبعه من الهاشمين ، ولم يلحق حسان

عصر الفتنة الثانية أيام يزيد اذ توفي في أواخر عهد علي أو أوائل عهد معاوية ولكن شعره على ما يظهر استغله الزبيريون وخصومهم كما استغله الهاشميون ، ومضوا في هذا الاستغلال حتى العصر العباسي . ومن أمثلة ذلك .

(أ) الأمويون : بمجرد أن قتل عثمان أخذ معاوية وبنو أمية يعتبرون أنفسهم أولياء دمه ، ومن ثم مضوا يطلبون عليا بتسليم قاتليه ، بل لقد عدوه شريكا لهم ، وتصايح شعراؤهم من أمثال الوليد بن عقبة يطلبون أخذ الثأر له ، وأخذوا يضعون على حسان شعرا في بكاء عثمان ومطالبة معاوية بأن يتقدم ليثأر من قتله وذلك مثل :

أبلغ معاوية بن حرب مألكا
ولكل أمر يستراد قرار (١)

لا تقبلن دينة أعطيتها
أبدا ولما تألم الأنصار
حتى تبار قبيلة بقبيلة

قودا وتخرب بالديار ديار (٢)
وتجىء من نقب الحجاز كتيبة
وتسيل بالمستلثمين صرار (٣)

(١) المالك : الرسالة (٢) تبار من البوار وهو الهلاك .
القود : القصاص . (٣) النقب : الطريق ومرار : جبل قريب
من المدينة . استلأم الرجل اذا لبس ما عنده من عدة رمح وبيضة
ومغفر وسيف .

(ب) الزبيريون : وكما استغل الأمويون مكانة حسان في الاسلام وقيمة شعره بين المسلمين استغله أيضا الزبيريون ، فقد صنعوا مقطعات في مدح أنفسهم وأضافوها اليه ، مثال ذلك أنهم رووا أن الزبير مريوما بحسان وهو في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد ، والحاضرون غير مقبلين عليه ، فجلس الزبير وقال : مالكم لا تستمعون ؟ والله لظالما أصغى اليه صاحب هذا القبر وأجازه الجوائز السنية . فقال حسان يمدحه :

أقام على عهد النبي وهديه

حواريه والقول بالفعل يعدل

أقام على منهاجه وطريقه

يوالى ولى الحق والحق أعـدـل

وواضح أن الوضاعين يستغلون في هذين البيتين حديث

رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لكل نبي حواريا وان

حواريي الزبير » وتعرض بقية الأبيات لقرايته للرسول صلى الله

عليه وسلم وفيها يجاهر الزبيريون بأحقية عبد الله بن الزبير

بالخلافة على هذا النحو :

وان امرأ كانت صافية أمه

ومن أسد في بيتها لمرفل (١)

له من رسول الله قربي قريبة

ومن نصرة الاسلام مجد مؤثر

(١) مرفل : اى مسود .

فكم كربة ذب الزبير بسيفه
 عن المصطفى والله يعطى ويجزل
 فلا مثله فيهم ولا كان قبـله
 وليس يكون الدهر ما دام يذبل
 ثناؤك خير من فعال معاشر
 وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل
 وواضح أن البيت الرابع في هذه الأبيات يضع آل الزبير فوق
 عشائر قريش الأخرى ، فليس للزبير شبيه ولا نظير في قريش ،
 وهم بعد ذلك أقرب الأسر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو
 جانب اعتمد عليه الحزب الزبيرى في مناهضته للأمويين .

٣ - العباسيون :

حاول العباسيون عندما تولوا مقاليد الخلافة أن يشيدوا
 بالعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يجدوا خيرا
 من حسان كغيرهم من الأحزاب السياسية كى يضعوا على لسانه
 مدحا في العباس . فمن ذلك قصيدة نسبوها اليه في رثاء جعفر بن
 أبى طالب أولها :

تأوبنى ليل يثرب أعسر وهم إذا ما نوبم القوم مسهر
 فأتنا نجد في تضاعيفها أبياتا يذكر فيها عليا والعباس مع
 جعفر وحزمة رضى الله عنهم جميعا وذلك دون مناسبة الا أنهم
 أولياء الله يكشف بهم الكرب ، ويجلى بشفاعتهم الهم ، وكأن
 صانع هذه الأبيات يريد أن يقول ان عشيرة العباس لها حق في

الخلافة كحق على بن أبي طالب وعشيرته ، والأبيات تمضى على
هذه الشاكلة :

بها ليل منهم جعفر وابن أمه

على ومنهم أحمد المتخير (١)
وحمزة والعباس منهم ومنهم

عقيل وماء العود من حيث يعصر
بهم تكشف اللأواء في كل مأزق

عماس اذا ما ضاق بالقوم مصدر (٢)
هم أولياء الله نزل حكمه

عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهر
وواضح تماما أن ناظم هذه الأبيات وواضعها على حسان
شاعر ضعيف مبتدئ .

ولم يقف الأمر عند وضع الشعر على حسان ، بل لقد اختلط
أيضا شعره بشعر غيره من الشعراء أمثال كعب بن مالك وعبد الله
ابن رواحة ومעقل بن خويلد الهذلي وسعد بن الحصين وبشير
ابن سعد وعبد الله بن الحارث السهمي وصرمة بن أنس الأنصاري ،
هذا الى جانب اختلاط شعره بشعر ابنه عبد الرحمن بن حسان .

وقد كان اختلاط شعر حسان بشعر كعب أشد وأعظم من
اختلاطه بشعر غيره من الشعراء ، فقد كان كل منهما يهجو
المشركين بالأنساب والأيام الجاهلية ، أما عبد الله بن رواحة فقد

(١) البهلول : الحيي الكريم .

(٢) اللأواء : الشدة والمأزق . عماس : مظلوم .

كان يهجوهم بالكفر ، لذلك كان اختلاط شعرهما عند الرواة قليلا . ومن أمثلة اختلاط شعره بشعر كعب :

سقم كنانة جهلا من سفاهتكم
الى الرسول فجد الله مخزيها

يقول ابن هشام معلقا على نسبتها لحسان : أنشدنيها
أبو زيد الأنصاري لكعب بن مالك .

وكذلك الأبيات التي أولها :

على حين أن قالت لأيمن أمه

جنت ولم تشهد فوارس خير

قال ابن هشام : أنشدني أبو زيد الأنصاري هذه الأبيات
كعب ابن مالك ومن أمثلة ما نسب الى حسان من شعر عبد الله
ابن رواحة :

شهدت بأذن الله أن محمدا

رسول الذي فوق السماوات من عل

أما اختلاط شعر حسان بشعر ابنه عبد الرحمن فيرجع الى
خلط الرواة وعدم تمييزهم بين أشعار الابن والأب . فمن ذلك
قصيدة طويلة عدت أيام الأنصار مع الرسول صلى الله عليه
وسلم ونصرتهم له في الغزوات المختلفة ، ونجد ابن هشام يقول
عنها انها تروى لابنه عبد الرحمن . وهي التي أولها :

ألست خير معدّ كلها نفرا

ومعشرا ان هم عموا وان حصلوا

ومن أمثلة ما وقع فيه خلط في روايته ما ذكره ابن هشام
من أن مقطوعة حسان التي مطلعها :

مستشعري حلق الماذى ، يقدمهم

جلد النحيظة ، ماض ، غير رعديد^(١)

هى من نظم عبد الله بن الحارث السهمي .

كذلك روى ابن عبد البر أن الأبيات المنسوبة الى حسان

ومطلعها :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة

يذكر لو يلقى صديقا مواليا

هى من نظم صرمة بن أبى أنس الأنصارى .

من هذا يتضح أن الباحث حينما يتعرض لحسان ولشعره

فانما سيتعرض لموضوع شائك ، وعليه أن يحرص كل الحرص

في بسط هذا الموضوع واستخلاص نتائج . ولقد حاولت جهدى

أن أوفى الدراسة حقها بقدر ما تسمح به طبيعة هذا الكتاب

وجمهور القراء الذى سوف يتقدم اليهم .

(١) استشعرت الثوب : اذا لبسته على جسمك من غير

حاجز . الشعار : ما ولى الجسم من الثياب . والدثار ما كان فوق

ذلك . الماذية : من الدروع البيضاء . والماذى : الحديد كله :

الدرع والمفغر والسلاح .

الفصل الأول

يثرب قبيل الإسلام

ترتبط نشأة المدن بالأساطير التي تعبر أصدق تعبير عن عقل الانسان في مراحل تطوره الأولى وخصب مخيلته ، وقد شاركت يثرب — مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد — في هذه الصفة ، اذ تناقل الاخباريون حول نشأتها أساطير كثيرة ، ومن الطريف أنهم أسندوها الى رواة ثقات ! (١) .

ولسنا نريد أن نقف عند هذه الأساطير ، ولا نحب أن ندرس من تاريخ يثرب القديم الا ما بعد منتصف القرن السادس الميلادى ، فان ما قبل ذلك تغمره الأساطير وتملاه الأخبار التي لم يوثق منها شئ بعد .

ونحن — فى الحق — لا يعنينا من تاريخ يثرب سوى تلك الفترة التي عاشها حسان فى الجاهلية ، والتي عانى فيها ما كان يشتجر من صراع قبلى بين الأوس والخزرج ، كما سوف تعيننا تلك الفترة الأخرى من حياة هذه المدينة التي عاشها الشاعر تحت

(١) أنظر وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى للسهمودى ١ : ١١٧ وما بعدها .

ظلال الاسلام ، وهى التى امتدت حتى نهاية خلافة على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه .

وقد اعتبر الجغرافيون المسلمون القدماء يشرب ثانية مدن الحجاز فى الأهمية الاقتصادية بعد مكة ، ووصفوها فقالوا انها تقع وسط سهل ينحدر انحدارا خفيفا نحو الشمال حيث ينتهى بتلال أحد ويمتد على بعد أربعة أميال منها تقريبا . وتكثر فى غربى هذا السهل وشرقيه حرات سوداء ^(١) وهى بقايا براكين قديمة تتخللها وديان خصبة ، والجوانب الشرقية لهذا السهل أقل خصوبة من الجوانب الغربية لما ينتشر فيها من تلال . أما فى الجنوب فيتراعى هذا السهل الى أبعد ما يبلغه بصر ، وتتدفق المياه تبعا لانحداره من الجنوب الى الشمال حيث تتجمع فى زغابة ، كما أن المياه تفيض من الحرات وتتجمع فى الشمال أيضا ، ثم تتجه غربا الى حافة وادى اضم ، ولا تمتلئ هذه الأودية بالمياه الا بعد سقوط الأمطار مما يجعل مستوى المياه الجوفية مرتفعا ، ومن ثم تكثر الآبار والينابيع . وعندما تسقط الأمطار غزيرة فى عام من الأعوام فانها تكوّن بحيرة عظيمة تهدد أبنية المدينة وخاصة فى الجنوب . وقد حدث أن أمطارا غزيرة سقطت على المدينة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان فأمر ببناء سد يحميها من مثلها . ولمصادر المياه أسماء عدة منها : فى الغرب العقيق ورانونا ، وفى الشرق قناة ومهزوز ومذيئيب . والتربة رملية جيرية مالحة وهى خصبة على العموم وخاصة فى الجنوب .

(١) صخور سوداء .

ومناخ يثرب بارد رطب في الشتاء وحار قليل الغيوم في الصيف !

أما غلاتها فيكثر فيها النخيل ، كذلك ينبت فيها البرتقال والليمون والرمان والعنب والموز .

ويظهر أن المدينة كانت في أول الأمر أبنية وأكواخا متواضعة تحيط بها الحدائق والزروع ثم أخذت تزحف شمالا حيث ارتبط بها اسم يثرب . وأصبحت بعد أن نمت بهذه الصورة معرضة لهجمات المغيرين من البدو ، ولم يكن هناك ما يحمي أهلها غير تلك الأطم^(١) التي يلوذون بها حتى يرحل عنهم المغيرون .

وتاريخ يثرب — وان كنا لن نتعرض له — قديم كما تدل على ذلك النقوش والأخبار — اذ نراها في الكتابات المعينية والسبئية . كذلك ذكرها بطليموس في جغرافيته باسم *iathrpa* ، وكذلك اصطفيان البيزنطي . وقد عرفت يثرب باسم « المدينة » أخذا من كلمة *medinta* الآرامية التي تعني « الحمى » وقد كان اليهود الذين ينزلونها متأثرين بالثقافة الآرامية ، أما أنها اختصار لاسم « مدينة الرسول » فيظهر أن هذا رأى متأخر^(٢) .

وتاريخ من نزل يثرب قديما مجهول ، أما ما يذكره الاخباريون من وجود العماليق وجرحهم بها ومجيء اليهود إليها

(١) الأطم : هي الحصون التي كان أهل المدينة يبتنونها ليحتموا بداخلها .

(٢) انظر تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد على ١٨١ : ٤ .

في أيام موسى فانه لا يستند الى دليل ، والذي نعرفه يقينا أن أهل المدينة في عصر الرسول كانوا عربا ويهودا ، وكان العرب فيها ينقسمون الى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج وبينهما صلة قرى معروفة ، وكان اليهود يعيشون فيها قبائل بلغت ثيفا وعشرين قبيلة ، وقد اشتهر من بينها قبيلتا قريظة والنضير (١) . والأوس والخزرج من بقايا هجرات القبائل اليمنية الى الشمال وذلك بعد الأزمات الاقتصادية التي لحقت بهم وخاصة بسبب انهيار سد مأرب الذي حدث أكثر من مرة ، أما اليهود فهم بقايا هجرات قديمة جاءت من الشمال بسبب اضطهاد الرومان لهم على توالى القرون .

وقد سجل التاريخ صراعا بين القبائل العربية واليهودية في يثرب بسبب تشاحنهم على المناطق الخصبة فيها ، وكان العرب يستعينون في هذا الصراع بأقربائهم من القبائل اليمنية الأخرى التي هاجرت مثلهم الى الشمال واستطاعوا أن يسيطروا على يثرب ويفرضوا سلطانهم على اليهود ، على أنه سرعان ما تحول الصراع الى بطونهم فأخذ اليهود يسترجعون نفوذهم وقوتهم مرة أخرى . ولم يخمد هذا الصراع الا عندما هاجر الرسول الى يثرب وأخى بين القبيلتين كما أخى بينهما وبين المهاجرين .

ويجدر بنا أن نقف عند هذا الصراع القبلى الذى شارك فى بعضه حسان قبيل الاسلام حتى نستطيع أن ندرس حياته ونذكر

(١) وفاء الوفا في اخبار دار المصطفى ، ١ : ١٨٠ للسمهودى ، ومعجم البلدان ٤ : ٤٦٣ ، الأغاني ٩ : ٩٤ - ٩٥ .

طبيعة الظروف الاجتماعية التي عاش فيها . وقد اتخذ هذا الصراع شكل حروب متعاقبة مثل يوم السراة ويوم الربيع ويوم فارع البقيع ويوم معبس ومضرس . وأهم هذه الأيام هي : (١)

١ — يوم سمير : للأوس على الخزرج

٢ — يوم كعب بن عمرو : للخزرج على الأوس

٣ — يوم حاطب : للخزرج على الأوس

٤ — يوم بعث : للأوس على الخزرج

يقول الاخباريون في حرب سمير : حدث أن وفد على يثرب وافد من ذبيان يسمى كعب الثعلبي ونزل على مالك بن العجلان الخزرجي وحالفه . وفي أحد الأيام خرج كعب الى سوق بني قينقاع فرأى رجلا من غطفان معه فرس وهو يقول : ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب . وثار مناقشة حول أعز أهل يثرب . وقال كعب الثعلبي : هو مالك بن العجلان فغضب رجل من الأوس من بني عمرو بن عوف يقال له سُمير بن زيد ولزم كعبا حتى قتله في سوق لهم بقاء . فثار مالك بن العجلان وحض قومه من الخزرج على قتال الأوسيين أو دفع الدية كاملة . ورفضت الأوس دفع دية كاملة وعرضت دية الحليف وهي نصف الدية الكاملة — فثار الحرب ولم تضع أوزارها الا بعد أن تقاتل الأوس والخزرج نحو عشرين سنة كثرت فيها أيامهم ، وأوشك أن يفنى بعضهم بعضا . فحكمت القبيلتان ثابت بن المنذر بن حرام

(١) أنظر في هذه الأيام كتاب أيام العرب في الجاهلية لأبي الفضل ابراهيم والبجاوى .

والد حسان . ولم يدرك حسان تلك الحرب ولكنه رد فيها على شاعر الأوس قيس بن الخطيم عندما فخر عليه بهذا اليوم .

أما يوم كعب بن عمرو فقد حدث أن رصد رهط من بنى جحجى من الأوس كعب بن عمرو المازنى الخزرجى فضربوه حتى قتلوه أو كادوا ، فلما بلغ أخاه عاصم بن عمرو ما حدث ، خرج ومعه بنو النجار وقاتلوا الأوس قتالا شديدا حاول فيه عاصم أن يقتل أحيحة بن الجلاح الأوسى مقابل قتل الأوس لأخيه كعب . وكان هذا اليوم للخزرج على الأوس .

أما يوم حاطب فكان نوعا من أنواع الاستفزاز بين القبيلتين . فقد كان حاطب بن قيس الأوسى سيدا شريفا ، وحدث أن نزل به رجل من ذبيان أكرمه وأقام عنده ، وذات يوم غدا هذا الرجل الى سوق بنى قينقاع فرآه أحد بنى الحارث بن الخزرج اسمه يزيد ، فقال لرجل يهودى : لك ردائى ان كسعت هذا الذيبانى . ففعل اليهودى وأخذ رداء يزيد . فنادى الذيبانى : يا لحاطب ! كسع ضيفك وفضح ! فجاء حاطب فقتل اليهودى ، فقتل يزيد الخزرجى رجلا من الأوس بذلك اليهودى ، وثار الحرب بين القبيلتين . وكان على الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، وعلى الأوس حضير بن سماك الأشهل . وعلم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر وخيار بن مالك الفزاريان بالأمر فقدموا يثرب وتحدثا مع الأوس والخزرج فى الصلح وضمنا أن يتحملا الديات ، فأبوا ، وامتشقوا الحسام وكانت الدائرة على الأوس .

أما يوم بعث فهو صورة من صور تدخل اليهود فى العلاقات

بين القبيلتين وافساد أخوتهما يبذر بذور الفتنة والشقاق بينهما
 ونصرة احدهما على الأخرى رغبة في اضعاف القبيلتين معا . فقد
 حدث أن استعانت الأوس ببني قريظة والنضير في حروب كانت
 بينهم وبين الخزرج ، فبعثت الخزرج الى القبيلتين اليهوديتين
 تقول : ان الأوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ، ولن يعجزنا
 أن نستعين بأعدادكم وأكثر منكم من العرب ، فان ظفرنا بكم
 فذلك ما تكرهون . وان ظفرتم بنا لم تتم عن الطلب أبدا ،
 فتصيروا الى ما تكرهون ، ويشغلكم من شأننا ما أتمم الآن منه
 خالون . وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا ، وتخلوا بيننا وبين
 اخواننا . ثم طلب الخزرج رهائن من ولدانهم ليضمنوا عدم
 نصرتهم للأوس . فأرسل اليهود لهم أربعين غلاما ، ففرقهم
 الخزرج في دورهم ، غير أن بطنا من الخزرج — وهم بياضة —
 حرضهم زعيمهم عمرو بن النعمان على أن يأخذوا منازل بني قريظة
 والنضير لأنها أفضل من منازلهم ، وراسل اليهود في ذلك
 والا يقتل رهائنهم فرفض اليهود . وقتل عمرو بن النعمان ومن
 أطاعه من الخزرج الرهائن التي كانت لديهم ، ورفض عبد الله
 ابن أبيّ أن يفعل فعلهم ، وبعث قريظة والنضير تستصران
 الأوس على أن ينزل كل بيت من البيت — وهم حي من
 الأوس — على بيت من بني قريظة ، فنزلوا معهم في دورهم ،
 واصطفوا في صفوفهم يحاربون الخزرج . وحاربتهم الخزرج
 وعلى رأسها عمرو بن النعمان البياضي ، ورفض عبد الله بن أبيّ
 أن يشترك في تلك الحرب ، وقال ان هذا بغى منكم على الأوس

وعقوق . وأرسلت الخزرج تستنصر بجهينة وأشجع ، وأرسلت الأوس مع بنى قريظة والنضير الى مزينة . وذهب حضير الكتائب الأشهل الى أبى قيس بن الأسلت فأمر أن يجمع له أوس اللات ، فجمعهم له أبو قيس . فقام فيهم حضير خطيبا وحرصهم على القتال ، وطلب اليهم أن يعقدوا لأبى قيس بن الأسلت فرفض أبو قيس وقال : انى لم أرأس على قوم فى حرب قط الا هزموا وتشاءموا برياستى . وكان اللقاء ببعاث وانهزمت الأوس أول الأمر ولكنها انتصرت أخيرا ووضعت فى الخزرج السلاح ، ثم كفت عن سلبهم بعد ائثارها فيهم ، وكثر شعر القوم فى هذا اليوم هجاء ورتاء وفخرا . وشارك حسان فى هذه المعركة اللسانية مشاركة فعالة .

من هذه النماذج الأربعة لأيام الأوس والخزرج تتضح صورة الوضع الاجتماعى فى يثرب قبيل الاسلام ، فصراع بين الأوس والخزرج وبين اليهود ، ثم صراع بين الخزرج وبين الأوس ، وكل هذا الصراع ينبع من مسببات قبلية وجهالة بدوية أو تدخل سافر من اليهود فى العلاقات بين القبيلتين الشقيقتين لاشعال الفتنة بينهما واضعافهما حتى يستطيعوا أن يسترجعوا نفوذهم وسيطرتهم على المدينة ، ويسيطروا سلطانهم على القبيلتين .

كان المجتمع اليثربى اذن مجتمع شقاق وقتال لعب فيه اليهود دورا خطيرا ، واستعانت فيه القبيلتان العربيتان بأنصار من الخارج مرة وباليهود مرة أخرى ، وقد سبب هذا توترا شديدا فى العلاقات الاجتماعية بين سكان المدينة ، كما أضعف الحياة

الاقتصادية بها اذا قارناها بمثيلتها في مكة التي عاشت في هدوء نسبي في أواخر القرن السادس الميلادي .

وقد عاشت الديانة اليهودية جنبا الى جنب مع الوثنية العربية وان كانت هناك شواهد تدل على أن العرب احتقروا ديانة اليهود وعاداتهم وسلوكهم .

ويلاحظ الباحث أن كثيرا من بطون القبيلتين الكبيرتين في يشرب قد نبذت حياتها الرعوية ، وشاركت اليهود في زراعة الأرض والارتباط بها ، كما حاكتهم في اتخاذ الآطام حصونا والدور سكنا ، ولكن هذا لا ينفي أن بطونا أخرى احتفظت بتقاليدها الرعوية وثالثة نشطت في التجارة ، ورفضت أن تمتعن الزراعة أو الصناعة .

الفضل شالي نشأه حسان

(أ) نسبه :

نسب الرواة حسان الى أبيه فقالوا : هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك ابن النجار — وهو تيم الله — بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزقياء بن عامر بن ماء السماء ابن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول ابن مازن بن الأسد ^(١) بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد ابن كهلان بن سبأ يشجب بن يعرب بن قحطان .

ثم نسبوه الى أمه فقالوا : أم حسان الفريعة بنت خنيس ^(٢) ابن لوذان بن عبدون بن ثعلبة ^(٣) بن الخزرج بن ساعدة بن كعب ابن الخزرج .

(١) الأسد لغة فى الأزد وبالسين أفصح .

(٢) كذا فى أقدم مخطوطه للديوان (٢٥٥ هـ) . وفى الأغانى ٤ : ١٣٤ ، وأسد الغابة ٢ : ٤ الفريعة ابنة خالد بن خنيس .

(٣) فى مخطوطة الديوان وفى الأغانى ٤ : ١٣٤ : ابن عبدود ابن زيد بن ثعلبة . وفى سيرة بن هشام ٢ : ٨٧ خنيس بن حارثة ابن لوذان .

من هذا نلاحظ أن حسان خزرجي من جهة أبيه وأمه معا ،
بل ومن أقوى بطونها جميعا .

ويصعب على الباحث أن يحدد السنة التي ولد فيها حسان ،
فرغم أن معظم الرواة اتفقوا على أنه عاش ما يقرب من مائة
وعشرين عاما الا أنهم اختلفوا في سنة وفاته ^(١) ، فقد قيل انه
توفي سنة أربعين من الهجرة ، وقيل بل سنة خمسين ، وقيل
بل سنة أربع وخمسين ، وقد وضعه الطبري فيمن توفوا سنة
ثمانين من الهجرة !!

ولما كانت أخباره تنقطع في أواخر عهد عليّ بن أبي طالب
رضي الله عنه ، فالتنا يمكننا أن نأخذ بالرواية التي تقول انه توفي
سنة أربعين من الهجرة تقريبا .

وان تحديدنا لسنة أربعين من الهجرة زمتا لوفاته يجعلنا
نرفض فكرة أنه عاش ما يقرب من مائة وعشرين عاما ، فقد روى
أنه عندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم الى المدينة كان
حسان يبلغ من العمر ستين عاما تقريبا ، ومعنى ذلك أنه عاش
ما لا يزيد عن مائة عام ، ويكون بذلك قد ولد في منتصف العقد
السابع من القرن السادس الميلادي . وكانت أسرة حسان ذات
شأن عظيم في الجاهلية والاسلام معا ، فوالده ثابت بن المنذر
قد حكّمته الأوس والخزرج في حرب سمير ونزلوا على حكمه ،

(١) انظر الاستيعاب لابن عبد البر (مادة حسان) .

وأخوه أوس بن ثابت ^(١) ممن شهد العقبة مع السبعين من الأنصار
كما آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عثمان بن
عقاف الصحابي الجليل وثالث الخلفاء الراشدين !

ومن الرواة من يقول أن أوس بن ثابت شهد بدرًا وأحدا والخندق
والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي في خلافة
عثمان ، ومنهم من يقول أنه قتل يوم أحد شهيدا . ويظهر أن
الرأي الأخير هو الصواب . فقد جاء في قصيدة لحسان ما يشير
إلى استشهاد أخيه أوس عندما قال :

ومنا قتيل الشعب أوس بن ثابت
شهيدا وأسنى الذكر منه المشاهد

أما الأخ الثاني لحسان فهو أبي بن ثابت ^(٢) وكان يكنى
بأبي شيخ ، وقد شهد بدرًا وأحدا وقتل يوم بئر معونة شهيدا
في صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من الهجرة .

(١) أوس : أخ لحسان من أبيه ، وأمه سخطى بنت حارثة
بن لوذان ابن عبيدود من بني ساعدة ، وكان ثابت بن المنذر خلف
على سخطى بعد أبيه وكانت العرب قبل الإسلام تفعل ذلك ولا ترى
فيه شيئا . وقد أخلف أوس عقبا : شداد بن أوس ويعلى بن شداد
ابن أوس (انظر الطبقات الكبير مجلد ٣ قسم / ٢ ص ٦٣ ط
أوروبا ، وكتاب المعارف لابن قتيبة ١٥٩) .

(٢) أبي : أخ لحسان من أبيه ، وأمه عمرة بنت مسعود بن قيس
ابن عمرو بن زيد مناة ، وقد أسلمت وبايعت الرسول صلى الله
عليه وسلم (انظر الطبقات الكبير لابن سعد المجلد الثامن ٣٣٠)
ولم يخلف أبي عقبا . (انظر الطبقات الكبير المجلد الثالث قسم / ٢
ص ٦٣ ط أوروبا) .

وعرف لحسان أكثر من أخت ، اتفق الرواة في اثنتين منهن وهما كبشة ولبنى بنتا ثابت بن المنذر ^(١) ، وقد أسلمتا وبايعتا الرسول وحسن اسلامهما . أما الأخريان وهما فارعة وخولة بنتا ثابت بن المنذر فقد اختلفت الروايات فيهما . فقد قيل ان فارعة عشقت عبد الرحمن بن الحارث المخزومي وفيه شعرها الذي منه : (٢)

يا خليلي نابني سهدى لم تتم عيني ولم تكـ
كيف تلحوني على رجل أنس تلتذه كبـ
مثل ضوء البدر طلعتـ ليس بالزميلة النكد
وقيل ان خولة هي التي أنشدت تلك الأبيات متعشقة عمارة

ابن الوليد المخزومي وهي كما ذكرها أبو الفرج الأصفهاني : (٣)

يا خليلي نابني سهدى لم تتم عيني ولم تكـ
فشرابي ما أسـ أشتكى ما بي الى أحد
كيف تلحوني على رجل أنس تلتذه كبـ
مثل ضوء البدر صورته ليس بالزميلة النكد
من بنى آل المغيرة لا خامل نكس ولا جـ
نظرت يوما فلا نظـرت بعده عيني الى أحد

ونعرف من زوجات حسان ثلاثا ، اثنتين تزوجهما قبل الاسلام وهما عمرة بنت صامت بن خالد من الأوس ، وشعشاء

(١) أختان لحسان من أبيه وأمهما سخطى بنت حارثة ابن عبدود (الطبقات الكبير المجلد ٨ : ٣٢٩ طبعة أوروبا) .

(٢) الأغاني ٣ : ٣٣ .

(٣) المرجع السابق ٣ : ٣٤ - ٣٥ .

بنت سلام بن مشكم اليهودى أو بنت كامن الأسلمية . وثالثة وهبها له رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى سيرين القبطية التى كانت هدية المقوقس حاكم مصر الى الرسول عليه السلام .

أما عمرة ، فقد أحبها حسان جبا عظيما وحدث أن أسر الأوس مخلد بن صامت الساعدى ، فتكلم حسان فى أمره بكلام أغضب عمرة فغيرته بأخواله وفخرت عليه بالأوس وهو الخزرجى المتعصب ، وكان يجب أخواله ويغضب لهم فطلقها ، فأصابها من ذلك شدة . وندم حسان بعد ذلك ندما شديدا (١) .

وقد شبب بها فى مطلع بعض قصائده وتحدث فيما شجر بينهما من خلاف وأظهر فى كل ذلك ألمه وندمه ، وإن كان فى نفس الوقت يفخر بنفسه وأخواله الذين كانوا سببا فيما حدث له من كرب . يقول :

أجمعت عمرة صرما فابتكر

انما يدهن للقلب الحصر (٢)

لا يكن حبك خبا ظاهرا

ليس هذا منك يا عمر بسر (٣)

سألت حسان من أخواله

انما يسأل بالثى الغمر (٤)

-
- (١) المخطوطة رقم ٢٥٣٤ من الديوان بمعهد مخطوطات الجامعة العربية . الورقة/ ٧٥ .
(٢) الصرم : الهجر . ابتكر : عجل . الادهان : الخضوع . الحصر : الضيق .
(٣) عمر : ترخيم عمرة .
(٤) الغمر : الجهول .

- قلت أخسوالى بنو كعب اذا
 أسلم الأبطال عورات الدبر (١)
 رب خال لى لو أبصرته
 سبط الكفين فى اليوم الخصر (٢)
 عند هذا الباب اذ ساكنه
 كل وجه حسن النقبة حر (٣)
 يوقد النار اذا ما أطفئت
 يعمل القدر بأثباج الجزر (٤)
 من يغر الدهر أو يأمنه
 من قبيل بعد عمرو وحجر (٥)
 ملكا من جبل الثلج الى
 جانبى أيلة من عبد وحر (٦)

- (١) أسلم الأبطال عورات الدبر : انهزموا .
 (٢) سبط الكفين : سخرى وكريم . اليوم الخصر : الشديد
 البرد . يريد أن يقول أن أخواله كرماء فى وقت الشدة والعسر .
 (٣) النقبة : الوجه .
 (٤) يوقد النار اذا ما اطفئت : يطعم الأضياف والغرباء حين
 يخل غيرة من الجذب والعسر . أثباج : جمع ثبج وهى أطايب
 الجزر . والجزور هى الناقة المذبوحة .
 (٥) عمرو وحجر من ملوك غسان . وعمرو « هو عمرو
 ابن الحارث بن عمرو بن عدى بن حجر ابن الحارث الفسانى .
 وحجر : هو حجر بن النعمان بن الحارث بن أبى شمر الفسانى .
 (٦) جبل الثلج : بدمشق . وايله : مدينة فى فلسطين .

وعمرة هي التي شيب بها قيس بن الخطيم الأوسى غريم
حسان ومهاجيه في الجاهلية عندما قال : (١)
أجد بعمره غنيانها فتهجر أم شائنا شأنها
وذلك لأن حسان كان يشيب بأخت قيس ليلي بنت الخطيم
في شعره .

أما شعراء فقد اختلف في أمرها . قال بعض الرواة انها بنت
سلام بن مشكم اليهودي (٢) ، كان حسان يشيب بها دائما في
شعره ، ولا تفسر تلك الرواية نوع العلاقة التي قامت بينهما .
وقال آخرون هي امرأة كانت تحت حسان (٣) ، وهي بنت كامن
الأسلمية من خزاعة (٤) . وربما كان الرأي الأخير أقرب الى
الصواب . ففى نص بمخطوطة الديوان القديمة أن حسان تزوج
امرأة من أسلم فولدت له غلاما . ويظهر أنه لم يكن على وفاق
معهما فقد قال في ابنه .

غلام أتاه اللؤم من شطر خاله
له جانب واف وآخر أكشم
فقال تجييه :

غلام أتاه اللؤم من نحو عمه
ومن خير أعراق ابن حسان أسلم

(١) ديوان قيس بن الخطيم .

(٢) مخطوطة الديوان رقم ٢٥٣٤ الجامعة العربية .

(٣) أى زوجته .

(٤) الروض الأنف ٢ : ٢٨٠ للسهيلي .

بقيت الزوجة الثالثة لحسان وهي هبة الرسول اليه وهدية حاكم مصر الى الرسول وأخت مارية زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أخلف حسان من سيرين ابنه الشاعر المشهور عبد الرحمن الذي ورث الشعر عن والده واستمر يحمل لواءه مدة في العصر الأموي .

وعبد الرحمن أوضح أبناء حسان شخصية في التاريخ (١) وكان شاعرا روى شعر أبيه كما كان محدثا ومن ضمنه بعض العلماء الى الثقات . واختلف في سنة وفاته وفي عدد سني عمره . والمشهور أنه ولد في عصر الرسول ، وتمتد أخباره الى أواخر القرن الأول وأوائل الثاني الهجري ، ومعنى ذلك أنه يصعب قبول الرواية التي تقول انه عاش حوالي ثمانية وأربعين عاما ، فلعل الأربعين محرفة (٢) .

وقد أخلف عبد الرحمن بن حسان أبناء عدة أشهرهم جميعا سعيد بن عبد الرحمن وكان شاعرا أيضا (٣) ، وكنى أبوه باسمه . ويذكر الرواة أن لحسان ابنتين ، أولاهما أم فراس (٤) وهي من زوجة شعشاء التي عرفنا بها من قبل ، ولا نجد من أخبارها

(١) انظر تهذيب التهذيب ٦ : ١٦٢ لابن حجر ، الطبقات الكبير لابن سعد مجلد ٥ ص ١٩٦ .

(٢) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر .

(٣) بناؤه كما جاء في الطبقات : الوليد واسماعيل وأم فراس وأمه أم شيبه بنت السائب بن يزيد ، ثم حسان بن عبد الرحمن والفريفة .

(٤) الروض الانف ٢ : ٢٨٠ .

شيئا مذكورا . أما الأخرى فهي ليلي بنت حسان ، فقد روى ابن عساكر في تاريخه ^(١) عن الأصمعي انه كان لحسان ابنة تدعى « ليلي » وحدث يوما أن كان حسان جالسا فبدا له أن يقول الشعر فقال :

أنسى الى أفناء عمرو وعامر
سمت لمعالها وعزت كمولها
متاريك أذئاب الأمور اذا التوت
أخذنا الفروع واجتثنا أصولها
الى أسرة طابت وعولى فرعها
فليس لفرع غيرها أن يطولها
ثم انقطع ، فقالت له ابنته من الخدر : كأنك قد انقطعت !
فقال : نعم ! فانتت تقول :

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا ،
كرام يعاطون العشيرة سولها
فقال حسان :

وقافية عجت بليلى ثقيلة
تلقيت من جو السماء نزولها
يهاب الذى لا ينطق الشعر سؤلها
ويعجز عن أمثالها أن يقولها

(١) تاريخ ابن عساكر ٤ : ١٣٤ .

ثم أظهر غضبا على ابنته لنظمها الشعر وقال : لهمت أن أحلف ،
أن لا أقول بيت شعر ما دمت حية . فقالت : أنا أوأمك ! والله
لا أقول بيت شعر ما صحبتك !!

قالى جانب أن هذه الرواية تشير الى وجود ابنة له تدعى
« ليلي » فانها تبين ظاهرة أخرى فطن اليها القدماء وهى اشتها
بعض الأسر بنظم معظم أفرادها للشعر وتوارثهم له أمثال أسرة
زهير بن أبى سلمى وأسرة حسان بن ثابت !

ويظن أن لحسان ابنا يسمى الوليد ، فقد كان يكنى
بأبى الوليد ، واشتهر بذلك ولكن الرواة لم يذكروا من شأن
هذا الابن شيئا (١) .

(ب) شخصيته :

قد يكون من المتناقض أن نتحدث عن شخصية حسان فى هذا
الفصل والكتاب كله يهدف الى تصوير هذه الشخصية فى
جاهليتها وفى اسلامها بطريقة تختلف فى أسلوبها عما حاوله القدماء
عندما عددوا بعض صفات هذه الشخصية ، غير أن ما أبغى تصويره
ومناقشته هنا خاصة ناحيتان : أولاهما صفاته الجسمانية التى
جاءت متفرقة عند الرواة فى أخباره ، وأخراهما تلك المسألة التى
شغلت الدارسين القدماء منهم والمحدثين وهى الصاق تهمة الجبن
بهذا الشاعر ومدى صحة هذا الاعتقاد .

ذكر الرواة أنه كان لحسان ناصية يسدلها بين عينيه ،

(١) قد يكون هذا الابن من زوجه من أسلم وهو الذى هجا
حسان من خلاله أخواله وردت عليه زوجة هاجية أعمامه .

وكان يضرب بلسانه روثة أنفه من طوله ويقول : ما يسرنى به
مقول أحد من العرب ، والله لو وضعته على شعر لحلقه أو على
صخر لفلقه . ثم كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ، ولا يخضب
سائر لحيته . وقد سأله ابنه عبد الرحمن يوما : يا أبت لم تفعل
هذا ؟ فقال : لأكون كأنى أسد والغ في دم (١) .

والجزء الأول من هذه الرواية يتصل بنفوذه في الجاهلية
ومدى خوف العرب من أهاجيه ، فان اللسان الذى يحلق الشعر
ويفلق الصخر لسان تخافه القبائل ، وتحسب له ألف حساب .
فتتراضى صاحبه ، وتحرص على أن تتقى شره ، وهذا ما سوف
تؤكدده في هذا الكتاب .

أما أنه كان يخضب شاربه وعنفقته بالحناء ليكون كالأسد
الوالغ في الدم فهذا ما حاول الدارسون أن يتخذوه وغيره مظهرا
من مظاهر الجبن . وقد روت أيضا صفية بنت عبد المطلب رضى
الله عنها أنها كانت في فارع — أطم حسان (٢) — يوم الخندق .
وقالت : كان حسان معنا فيه والنساء والصبيان ، فمر بنا رجل
من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت
ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بيننا وبينهم
أحد يدفع عنا ، ورسول الله والمسلمون في نحور عدوهم
لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم ، اذ أنا آت فقلت :
يا حسان ان هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وانى والله

(١) الأغاني ٤ : ١٣٥ .

(٢) الأطم : الحصن .

ما آمنة أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليه فاقتله . فقال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب . لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . فقالت : فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئا احتجرت ^(١) ، ثم أخذت عمودا ثم نزلت اليه من الحصن فضربته بالعمود حتى قتله . فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت : يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعني من سلبه الا أنه رجل . فقال : مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب ! ^(٢) .

وقد وردت روايتان أخريان تمثلان موقف حسان من القتال وتشبهان الى حد كبير موقفه من القتال في الرواية السابقة . تقول الرواية الأولى ان يهوديا جاء ليرتقى الحصن فقالت صفة لحسان : أعطني السيف . فأعطاه ، فلما ارتقى اليهودي ضربته حتى قتله ثم احتزت رأسه فأعطته لحسان وقالت طويح به ، فان الرجل أقوى وأشد رمية من المرأة . وكأنها تريد أن ترعب بذلك حسان ^(٣) . أما الرواية الأخرى فتذكر أن حسان كان ضاربا في آخر أطمه وتدا فاذا حمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين حمل الودد فضربه بالسيف ، واذا أقبل المشركون انحاز عن الودد حتى كأنه يقاتل قرنا . وكأنه يتشبه بالمجاهدين في شجاعتهم ^(٤) .

(١) احتجز بردائه أى شده على وسطه .

(٢) الأغاني ٤ : ١٦٥ - ١٦٦ ، تاريخ الطبرى ٣ : ٥٠ .

(٣) الأغاني ٤ : ١٦٦ .

(٤) الأغاني .

ولا شك أن هذه الأخبار جميعا — ان كانت تدل على شيء — فانما تدل على أنه كان يخاف أن يشترك في قتال وخاصة اذا عرفنا أنه لم يساهم في غزوة من غزوات الرسول قط . فهل هذا الخوف من أن يدخل في معركة من المعارك يعتبر جبا ؟ ألا يمكننا أن نقول ان هناك علة أخرى تمنعه من الاشتراك في الحرب ؟ قد يكون السن هو السبب . فهذه الأخبار جميعا رويت عن حسان وقد بلغ الستين على الأقل . ورجل في الستين من عمره قد يضعف ، عن أن يدخل حربا أو يساهم في قتال . غير أن هناك علة أخرى أشار إليها صاحب الأغاني تقول ان أكل (١) حسان كان قد قطع فلم يكن يضرب بيده (٢) وقال الواقدي مدافعا عن حسان وعن تهمة الجبن الموجهة إليه (٣) ان قومه كانوا يدفعون أن يكون جباناً ولكنه أتعده الحرب أن أكمله قد قطع فذهب منه العمل في الحرب ، ويؤيد هذا الرأي قول حسان نفسه :

أضر بجسمى مر الدهور وخان قراع يدي الأكل (٤)
وفد كنت أشهد وقع الحروب ويحمر في كفى المنصـ
ويناصر الأصمعي حسان بن ثابت ويدفع عنه تهمة الجبن
فيقول : الدليل على أن حسان لم يكن جباناً أنه كان يهاجى خلقاً
فلم يعيره أحد منهم بالجبن .

(١) الأكل : عرق في اليد « الفاضل للمبرد ص ١٣ » .

(٢) الأغاني ٣ : ١٦٦ .

(٣) تاريخ ابن عساكر ٤ : ١٢٦ .

(٤) الأكل : عرق في اليد .

وجدير بالملاحظة أن الوقائع التي استشهد بها الاخباريون على جبن حسان كلها وقائع اسلامية ، وعلى هذا يمكن أن نرجح أن قطع أكحل حسان حدث في الجاهلية أو قبل دخوله في الاسلام ولا شك أن مثل هذا السبب الى جانب كبر سنه وضعف روح المغامرة عنده يجعله حذرا متمهلا في الوقت الذي نجد فيه شباب المسلمين وشيوخهم مندفعين بقوة الدين وبروح الرسول نحو الجهاد الذي كان المظهر الحقيقي للمسلم المؤمن في هذه الفترة .

وكان احجام حسان عن الاشتراك في كل قتال ينشب وكل غزوة يخرج اليها المسلمون سببا في أن بعض المسلمين كانوا يضحكون منه اذا وصف نفسه في قتال أو افتخر بشجاعة أو بطولة . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه ينشد :

لقد غدوت أمام القوم منتظقا
بصارم مثل لون الملح قطاع
يخفز عني نجاد السيف سابغة
فضفاضة مثل لون النهى بالقاع (١)

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فظن حسان أنه ضحك من صفته لنفسه بصفات البطولة مع اشتغاره بين المسلمين بجبنه (٢) .

(١) نجاد السيف : حمائله . ودرع سابغة وفضفاضة : واسعة . النهى : الغدير . القاع : الصحراء .
(٢) الأغاني ٤ : ١٦٦ - ١٦٧ .

الفصل الثالث شعر حسان الجاهلي

حسان والنقاد القدماء :

يتضح لمتتبع أخبار حسان قبل الاسلام ولدارس شعره أنه من الشعراء الذين ازدوج مظهر حياتهم الاجتماعية في الجاهلية ، فهو شاعر قبلي يفخر بقبيلته وبنفسه ، وكلاهما شيء واحد فقبيلته تحقق له ذاته ، وذاته تضيف الى القبيلة عنصرا من عناصر شخصيتها ، ثم هو في نفس الوقت شاعر مداح ، يقدم الغير على نفسه ليتكسب أموالهم ويؤخر ذاته عن الغير لينال رضاءهم .

وقد عاش حسان في فترة ازدهر فيها كل من الفنين : فن الشعر القبلي وفن شعر المديح ؛ ازدهر الفن الأول لاشتعال ضرام القتال في هذه الفترة ، والتهاب العصبيات القبلية التي تعقدت مسبباتها ، فلم تعد هناك قبيلة لا تحمل للأخرى ثأرا ، وازدهر فن المديح لشراء المملكتين الشماليتين في الحيرة وفي غسان لارتباطهما بالتحضر الفارسي والتحضر البيزنطي ، وتولى الحكم فيهما أعظم ملوكهما منذ نشأتها .

ونظرة واحدة الى كتاب النقائض والى أيام الجاهليين فيه توضح ضخامة تراث المعارضات القبلية وما يمكن أن يصلنا منها

لو نجح الرواة في تدوينها أو نجح الزمن في المحافظة على توصيلها ، كذلك يظهرنا على روعة تلك القصائد التي تشيد بأمجاد القبائل وانتصاراتها وكثرة من اشتهروا بها من الشعراء القبليين أمثال قيس بن الخطيم وعمرو بن الاطنابة وأبى قيس ابن الأسلت . أما شعر المديح فقد ظهر أعظم منشدیه في هذه الفترة أيضا ورددت الجزيرة أجلى أنغامهم ، فكانت قصائد زهير والأعشى والنابعة تجوب الجزيرة مصورة أشرف المثل الخلقية العربية .

ويتساءل الباحث أين كان حسان بين كل هؤلاء ؟ هل اعترف له النقاد بمكانة بين شعراء القبائل ، أو اعترفوا له بمكانة بين شعراء المديح ؟ هذا ما سوف ننظر فيه .
وأول ما نحب أن نعرض له رأى النقاد القدماء فيه وفي شعره .

انقسم رأى القدماء في حسان قسمين : قسم يحكم عليه حكما مطلقا ، وقسم آخر يحكم على شعره ويقارن بين جودته في الجاهلية وسقوطه في الاسلام .

أما القسم الأول فعن أبى عبيدة قال : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبی صلى الله عليه وسلم في النبوة وشاعر الیمن كلها في الاسلام (١) .
وعنه أيضا قال : اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدر أهل

(١) الأغاني ٤ : ١٣٦ .

يثرب ثم عبد القيس ثم ثقيف ، وعلى أن أشعر أهل يثرب حسان ابن ثابت (١) .

ويشبه قول أبي عبيدة هذا قول أبي عمرو بن العلاء والحطيئة والزبير بن بكار (٢) ؛ فأبو عمرو بن العلاء يقول : أشعر أهل الحضر حسان بن ثابت (٣) والحطيئة يقول : أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب (٤) ، أما الزبير فيروى عن أبي غزيه قوله عن حسان بن ثابت : هو شاعر الأنصار وشاعر اليمن وشاعر أهل القرى ، وأفضل ذلك كله أنه شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مدافع (٥) .

وقد حاول بعض الرواة أن يوازن بينه وبين آخرين ، فعن أبي الفرج قال : قال حسان بن ثابت : جئت نابغة بني ذبيان فوجدت الخنساء بنت عمرو حين قامت، عنده ، فأنشدته فقال : انك لشاعر وان أخت بني سليم لبكاء (٦) .

كذلك تهاجى الحطيئة ومزرد أخو السماخ وكلاهما شاعر كبير ، فقال مزرد يقلل من قيمة الحطيئة :

فلمست كحسان الحسام بن ثابت

ولست كشماخ ولا كالمخبل (٧)

(١) المرجع السابق ١٧٣ .

(٢) الزبير بن بكار : له كتاب في أخبار حسان مفقود (أنظر

فهرست ابن النديم) .

(٣) تهذيب التهذيب ٢ : ٢٤٧ . (٤) المرجع السابق .

(٥) مجالس ثعلب ٢ : ٤٢٩ . (٦) الأغاني ٤ : ١٦٧ .

(٧) المخبل : هو المخبل السعدي شاعر جاهلي .

وقد عُرِفَ لِحسان فهمه للشعر ومعرفته لطرقه وأساليبه ، فكان يُسأل فيه . فقد استشاره عمر بن الخطاب في شعر للحطيئة هجا به الزبرقان بن بدر هل هو هجاء . فقال حسان : لم يهجه ولكن سلح عليه . فحبس عمر الحطيئة قائلًا له : يا خبيث لأشغلنك عن أعراض المسلمين ^(١) .

أما القسم الآخر فقد روى فيه عن الأصمعي ثلاث روايات في ثلاثة مصادر تختلف في ألفاظها وتلتقي في دلالاتها . الرواية الأولى تقول : الشعر نكد يقوى في الشر ويسهل ، فإذا دخل في الخير يضعف ، هذا لأن حسان كان من فحول الشعراء في الجاهلية فلما جاء الاسلام سقط شعره ^(٢) .

والرواية الثانية تقول : شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر فقطع منته في الاسلام لحال النبي صلى الله عليه وسلم ^(٣) . والرواية الأخيرة تقول : طريق الشعر اذا أدخلته في باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والاسلام فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابعة في صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الحُمُر والخيل والحروب والافتخار فاذا أدخلته في باب الخير لان ^(٤) .

(١) الشعر والشعراء ١٨٦ .

(٢) أسد الغابة ٢ : ٤ .

(٣) الشعر والشعراء ١٧١ . (٤) الموشح ٦٢ .

وقيل لحسان : لان شعرك وهرم يا أبا الحسام . فقال للسائل :
يا بن أخى ان الاسلام يحجز عن الكذب . يعنى أن الاجادة
فى الشعر تستدعى الافراط الذى يقوله وهو كذب يمنع الاسلام
عنه فلا يجىء الشعر جيدا (١) .

تلك هى القضايا التى أثارها الرواة والنقاد القدماء حول
شعر حسان ، وكطبيعتهم دائما يحملون هذه القضايا معانى عامة ،
ولا يقومون بدراستها دراسة تطبيقية . وسوف ننظر فى هذه
القضايا جميعا وفى غيرها من خلال شعره .

١ - حسان الشاعر القبلى :

لا نكاد نظفر بأخبار تتصل بحياة حسان فى الجاهلية ، كيف
نشأ وكيف نطق الشعر ثم ما هى الأحداث المهمة التى شارك
فيها ؟ . فاذا عرفنا أن هذا الشاعر عاش ما يقرب من ستين عاما
جاهليا مشركا قبل دخوله الدين الجديد على يدى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فانه يمكننا أن نحس بهذا النقص الذى يعترى
تصوير هذه الشخصية فى أهم فترة من حياة الانسان وهى الفترة
التي ينضج فيها تفكيره وتتحدد ملامح شخصيته ، وتنمو فيها
مواهبه .

ويلجأ الباحث عندئذ الى ما بقى من شعره الجاهلى يبحث
فيه عن أبعاد هذه الشخصية عسى أن يلمس فيه مبتغاه ، وهنا

(١) اسد الغابة ٢ : ٤ .

نجد أن هذا الشعر — على قلته — ورغم ما وقع فيه من اضطراب — يصور بعدين أساسيين في شخصيته القبلية أولهما أنه لسان حال الخزرج المناقض لشعراء منافسيها وأعدائها من القبائل الأخرى وخاصة القبائل الأوسية ومناصريها ، وآخرهما يبرز شخصيته المعتدة بنفسها المفخرة بأمجاد ذويها ، والتي تحاول أن تتفوق بفرديتها وخصالها على الخصوم والمنافسين .

نلمح البعد الأول لهذه الشخصية فيما شجر من مناقضات بين حسان كشاعر للخزرج وبين قيس بن الخطيم كشاعر للأوس ، وقد استطاع حسان أن يشيد بأيام الخزرج ويقف من قيس موقف الند للند ، وخير مثال على ذلك قصائده يوم الربيع ويوم خطمة ويوم بعث ، وهي نقائض تثبت قدرته وامتيازه .

حدث أن اقتتلت الأوس والخزرج قتالا شديدا بالربيع (١) حتى كادوا يتفانون بعد أن وضعوا أبناءهم ونساءهم في الحصون ، واستمر الموقف متحرجا بينهما حتى لم يعد الرجل يأمن أن يخرج من حصنه الى عمل يقضيه خوفا من القتل ، ثم دعت الأوس الخزرج الى الصلح ، فأبت بنو النجار من الخزرج . وحالوا بين الفريقين وبين الصلح حتى كثر فيهم القتل ، ثم كف بعضهم عن بعض ، وان بقوا على عداوتهم وتشاحنهم ، فقال حسان شاعر الخزرج ورجل بنى النجار قصيدته :

لقد هاج نفسك أشجانها وعاودها اليوم أديانها

(١) اسم مكان .

فرد عليه قيس بن الخطيم شاعر الأوس معارضا :

أجسد بعمرة غيانها فتهجر أم شأننا شأنها
ويتضح لمن يقرأ قصيدة حسان أنها لم ترو كاملة فهو في بيتين
يقف موقف المتذكر لأحبائه ، المتطلع لهواه القديم ، ثم ينتقل الى
بيتين آخرين يصف فيهما واديا صعب الاختراق قطعه الشاعر
رغم عزيف الجن فيه ، فوق ناقة هوجاء يسألها عن حال حبيته وقد
رحل أهلها عن الديار ، ثم تأتي أبيات يتحدث فيها بلسان قومه
معددا للأوس أمجادهم كما يحبها الضمير القبلي ، فهم كرماء
وقت القحط ، يوم يخل الناس جميعا ، وهم ليوث ساعة المعركة
حينما يجبن الشجعان عن خوض ميدانها . يقول :

ويشرب تعلم أنا بها	إذا التبس الحق ميزانها
ويشرب تعلم أنا بها	إذا قحط القطر نوءانها (١)
ويشرب تعلم أنا بها	إذا خافت الأوس جيرانها
ويشرب تعلم أن النبى	ت عند الهزاهز ذلانا (٢)
نبت بالنبت وأشياعها	من ان أوعدت قط أرطانها
فكيف اذا نازلتها	ليوث غريف وشبلانها
متى ترنا الأوس فى بيضنا	تهز القنا تخب نيرانها (٣)
وتعط المقاد على رغما	وينزل من الهام عصيانها
ويشرب تعلم أن النبى	ت ليست بشىء وأعوانها

(١) نوءانها : مطرها .

(٢) الهزاهز : الشدائد .

(٣) بيضنا : سلاحنا .

فلا تفخرن والتمس ملجأً فقد عاد للأوس أديانها
 ونحن اذا حاربت عامر أمام الكتيبة أعيانها
 فاذا نظرنا بعد ذلك في مناقضة قيس لهذه القصيدة نجد أن
 أول ما يبدأ به غزل في عمرة بنت صامت بن خالد زوج حسان
 يستغرق منه خمسة أبيات ينتقم منه في التشبيب بها على طريقة
 الجاهليين ، فرغم أنه يصفها بأوصاف جميلة الا أن ذلك يضايق
 العربي الشريف مضايقة شديدة .

يقول فيها قيس :

فما روضة من رياض القطا كأن المصاييح حوذانها (١)
 بأحسن منها ، ولا مزنة دلوح تكشف أدجانها (٢)
 وعمرة من سروات النساء تنفخ بالمسك أردانها (٣)
 وينتقل قيس فجأة الى الفخر بلسان قومه كما فعل حسان
 راداً عليه بقوله :

نحن الفوارس يوم الريب مع قد علموا كيف فرسانها (٤)
 جنبنا الحراب وراء الصرير نخ حتى تقصف ممرانها (٥)
 ثم يرد على بيت حسان الذي فيه :

-
- (١) الروضة : البقعة يجتمع فيها الماء فكثير نبتها . الحوذان :
 نبت طيب الريح .
 (٢) المزنة : السحابة البيضاء . دلوح : كثيرة الماء . تكشف
 ادجانها : تكشف ظلمتها وذلك بانزالها ما تحمل من الماء .
 (٣) أردانها : أعطافها .
 (٤) الربيع : الجدول الصغير .
 (٥) جنبنا الحراب : حملوا حرابهم بأيديهم الى جنوبهم .
 الصرير : المستغيث . المران : الرماح .

كفيف اذا نازلتها ليوث عزيز وشبلانها

فيقول :

فلما استقل كليث الغريف زان الكتيبة أعوانها (١)
تراهن يخلجن خلع الدلاء تختلج النزع أشطانها (٢)
الى أن يقول مدافعا عن النبيت الذين هاجمهم حسان :
ويثرب تعلم أن النبيت راس يثرب ميسانها
حسان الوجوه حداد السيوف يتدر المجد شبانها
ثم يفتخر قيس بكرم قومه كما افتخر حسان ولكن ليس
بصورة حسان الذي جعل قومه يكرمون الناس حتى في أيام
القحط ولكن بتلك الصورة الجاهلية حين يفخر العرب بأنهم
يهينون أموالهم في سبيل الخمر ويصرفون أموالهم عليها فيقول :
وبالشوط من يثرب أعبد ستهلك في الخمر أثمانها
يهون على الأوس أثمانهم اذا راح يخطر نشوانها
ومن أشهر المعارضات التي رد بها حسان على شاعر الأوس
قيس بن الخطيم معارضته التي مطلعها :

ما بال عيني دموعها تكف

من ذكر خود شطت بها قذف (٣)

وذلك حين هجاه قيس بقصيدته التي أولها :

-
- (١) الغريف : الأكمة وكل شجر ملتف .
(٢) الأشطان : الحبال . يصور حركة الحراب في الطعن
والنزاع فيشبهها بحبال الدلاء وهي تختلج أثناء نزعها من البئر .
(٣) تكف : تسيل . الخود : الشابة الناعمة . القذف :
البعيدة .

رد الخليط الجمال فانصرفوا

ماذا عليهم لو أنهم وقفوا (١)
ان قيسا يبدأ قصيدته بثمانية عشر بيتا يصف فيها صاحبه
ويقول فيها :

فيهم لعروب العشاء ، آنسة ال

دل ، عروب ، يسوءها الخلف (٢)
بين شكول النساء خلقتها

قصد فلا جبلة ولا قصف (٣)
قضى لها الله حين يخلقها ال

خالق ألا يكنها سدف (٤)
تسام عن كبر شأنها فاذا

قامت رويدا تكاد تنغرف (٥)
حوراء ، جيداء ، يستضاء بها

كأنها خوط بانة قصف (٦)

(١) الخليط : المخالط لهم في الدار . ردوا جمالهم من الرعى
ليرتحلوا .

(٢) لعروب العشاء : أى تسهر مع السمار وتلهو .
(٣) الشكول : الضروب . جبلة : غليظة . القصف : الدقة
والثحافة .

(٤) سدف : ظلمة . يقول اذا كانت في ظلمة ابصرت ولم
تسترها الظلمة .

(٥) تنغرف : تسقط .
(٦) الحوراء : شدة سواد الحدة مع شدة البياض .
الجيداء : الطويلة العنق : خوط : قضيب : قصف : خوار ناعم
يتثنى .

تمشى كمشى الزهراء فى دمث الـ

رمل الى السهل دونه الجرف (١)

ولا يغث الحديث ما نظقته

وهو بفيها ذو لذة طـرف

تخزنه وهو مشتهى حسن

وهو اذا ما تكلمت أنف (٢)

كأنها درة أحاط بها الـ

غواص يجلو عن وجهها الصدف (٣)

حتى ينتهى الى قوله :

انى لأهـواك غير ذى كذب

قد شف منى الأحشاء والشفف (٤)

وينقل قيس بعد هذا المقطع الطويل الى الفخر القبلى

المألوف الذى يقول فيه :

أبلغ بنى جحجى وقومهم

خطمة أنا وراءهم أنف (٥)

وأنا دون ما يسومهم الأعدا

ء من ضميم خطمة نكف (٦)

(١) الزهراء : البقرة البيضاء . الدمث : اللين . الجرف :

ما تجرفته السيول .

(٢) أنف : مستأنف . أى ترسل الحديث دون تكلف .

(٣) يريد أن الصدف انفرج عنها فأبرز وجهها وظهر جلاءه

(٤) الشفف : غلاف القلب .

(٥) أنف : شديد الأنفة وهو الذى تأخذه الحمية والنخوة :

(٦) نكف : نستكف .

- لفلى بحد الصفيح هامهم
 (١) وفلينا هامهم بنسا عنف
 انا ولو قدموا التى علموا
 (٢) أكبادنا من ورائهم تجف
 لما بدت غدوة جباههم
 (٣) حنت علينا الأرحام والصحف
 كقيلنا للمقدماتين : قفوا
 (٤) عن شأوكم ، والحراب تختلف
 يتبع آثارها اذا اختلجت
 (٥) سخن عبيط عسروقه تكف
 قال لنا الناس : معشر ظفروا
 قلنا : فأنى بقومنا خلف
 لنا مع آجامنا وحوزتنا
 (٦) بين ذراها مخارف دلف
 يذب عنهن سامر مصع
 (٧) سود الغواشى كأنها عرف

- (١) فلاه بالسيف : اذا علاه . يقول : قتلنا اياهم عنف منا
 لأنهم قومنا وبنو عمنا .
 (٢) يقول : وان كانوا قدموا ما قدموا مما نكر فانا نشفق
 عليهم . (٣) الصحف : العهود .
 (٤) الشأو : السبق .
 (٥) اختلجت : جذبت . سخن عبيط : دم ساخن .
 (٦) مخارف دلف : نخل يخترف منه . والاختراف : لقط
 ثمر النخل يابساً أو رطباً . (٧) سود الغواشى : يعنى الغربان .

وحينما بدأ حسان في معارضة لقيس ، نجده مضطرا لأن يبدأ كما بدأ قيس : نسيب جاهلى وان كان خاليا من حرارة الانفعال أو تدفق العاطفة ولا يصبر على ذلك طويلا فبينما قيس يستغرقه النسيب في ثمانية عشر بيتا نجد حسان لا يستغرقه هذا النسيب أكثر من أربعة أبيات ثم ينفذ صبره ، ويتضح ذلك في البيت الخامس الذى يريد أن يتخلص فيه من هذا النسيب فجأة ودون رغبة فى الاستمرار فيه وذلك حين يقول :

دع ذا وعد القريض فى نفر مالهـم غير سبتى شرف
ثم يبدأ مهاجاة بطون الأوس والفخر بقومه قائلا :
كنتم عبيدا لنا نخـولكم

من جاءنا والعبيد تضطعف
كيف تعاطون مجدنا سـفها
وأنتم دعوة لها وكف (١)
شانكم جدكم وأكرمنا

جد لنا فى الفعال ينتصف
نجعل من كان المجد محتده
كأعبد الأوس كلما وصـفوا
هلا غصبتهم لأعبيد قتلوا

يوم بعـث أظلمهم ظلف (٢)
وكم قتلنا من رائس لكم
فى فيلق يجتـدى له التلف

(١) الوكف : العيب والنقص . (٢) الظلف : الشدة .

ومن لثيم عبسـد يحالفكم
ليست له رتبة ولا أنف
نقتلهم والسيوف تأخذهم

أخذاً عنيفاً وأنتم كشف (١)

وهناك مناقضة أخرى اشتهرت في الشعر الجاهلي بين
الشاعرين وذلك يوم السراة . فقد حدث أن رجلاً من الخزرج
لقى رجلاً من الأوس خارجاً من بئر أريس عند قريب له ، ومع
الخزرجي قوس له ونبل فرماه فقتله ، فلما بلغ الأوس مقتل
صاحبهم ليلاً قتلوه داخل بيته ، وكان لا يقتل رجل في داره ولا في
نخلة فرأت الخزرج مقتل صاحبهم . فقالوا والله ما قتل صاحبنا
إلا الأوس ، فخرجوا اليهم وخرجت الأوس نحوهم بالسراة ،
فاقتتلوا بها أربعة أيام حتى نال القتل كلا الفريقين ، كل واحد
من صاحبه كيف شاء . فقال قيس بن الخطيم قصيدته التي
مطلعها :

تروح من الحساء أم أنت مغتدى
وكيف انطلاق عاشق لم يزود

ورد حسان عليها بأبياته التي أولها :

لعمري أيبك الخير يا شعث ما نبا
على لسانى في الخطوب ولا يدي

فاذا قارنا بين القصيدتين نجد أن قصيدة قيس تبدأ بمقدمة

(١) وأنتم كشف : وأنتم مهزومون .

غزلية يصف فيها صاحبتة وصفا مألوفا بمقلتين بريئتين وجيد
صاف مزين . يقول

تراعت لنا يوم الرجيل بمقلتي

غرير يملتف من الصدر مفرد (١)

وجيد كجيد الرئم صاف يزينه

توقد ياقوت وفصل زبرجد

كأن الشريا فوق ثغرة نحرها

توقد في الظلماء أى توقد

ولا يستطيع حسان أن ينتظر طويلا في الرد على قيس فنراه
يذكر صاحبتة في بيت واحد قائلا : ان لسانه ويده لن يمتنعا عن
الرد على قيس ، ويحوّل حسان حديثه الى صاحبتة من وصف
لجمالها وتأثير لحبها في نفسه الى حديث عن القتال والشعر
وقدرته عليهما :

لعمر أيبك الخير يا شعث ما نبا

على لساني في الخطوب ولا يدى

لساني وسيفى صارمان كلاهما

ويبلغ ما لا يبلغ السيف مذودى

ويرسم قيس بعد مقدمته صورة للقتال مفزعة تقطر بالدماء
وتمتلئ بالجثث يتربص فيها الموت خلال كل خط من خطوطها
فيقول :

(١) غرير : يريد ظبيًا . والفرة : قلة التجربة . الصدر :
شجر النبق .

ألا ان بين الشرعى وراتج

- ضرابا كتخديم السيال المعضد (١)
لها حائطان الموت أسفل منهما
وجمع متى يصرخ يثرب يصعد
ترى اللابة السوداء يحمر لونها
ويسهل منها كل ريع وفدقد (٢)
لعمري لقد حالقت ذبيان كلها
وعبسا على ما فى الأديم الممدد (٣)
وأقبلت من أرض الحجاز بحلبة
تغم الفضاء كالقطا المتبدد (٤)
حملت ما كانت مزينة تشتكى

من الظلم فى الأحلاف حمل التعمد
لقد كانت معركة مريرة قاسية تحصد السيوف الرؤوس فيها
كما يحصد المنجل زهور السيال ، قد أحاط جدارا الموت
بالمقاتلين فلا مهرب لهم منه ، وهو فاغر فاه يتلقف الضحايا غذاء
شهيا له ، وكانت صرخاتهم فى يثرب تملأ الآفاق . لقد اختضبت

- (١) الشرعى وراتج : حصنان فى يثرب . التخديم : التقطيع .
السيال : تنجر له شوك أبيض . المعضد : المقطع .
(٢) اللابة : الأرض التى بها حجارة سوداء . يسهل : أى
نزل منها الدم . الريع : المرتفع . الفدقد : فيه صلابة وحجارة .
(٣) الأديم الممدد : الكتاب الذى قد مد . أى كتبوا كتباً
وتحالفوا على ما فى الصحف .
(٤) الحلبة : الجماعة من الخيل . القطا : نوع من الطير .

الحرث السوداء بالدماء فتحولت حمراء من كثرتها . ولم تكن الأوس وحدها في المعركة بل لقد أعانتها قيس بكتيبة عظيمة تملأ الفضاء كطيور القطا المنتشرة . أما في أبيات حسان فلا نجد فيها وصفا للمعركة كما في أبيات قيس ، وإنما شغل بالفخر بنفسه وبأقربائه من ملوك غسان ، فهو ان سئل على الاملاق تكلف العطاء فحمد ، وان كثر ماله فان الشراء لا ينسيه واجبه من العفة والحياء ، وان صروف الدهر ونوازله لا تقعد به عن أداء الواجب من القرى والعطاء ، وأخيرا يهدد قيسا بأنه سيلقى أسودا مسلحة بالرماح والسيوف . يقول :

فلا المال ينسيني حيائي وحفظتي
ولا واقعات الدهر يفلن مبري
أكثر أهلى من عيال سواهم
وأطوى على الماء القراح المبرد (١)
إذا كان ذو البخل الذميمة بطنه
كبطن الحمار في الخلاء المقيد
وأعمل ذات اللوث حتى أردھا
إذا حظ عنها جلسها لم تقيد (٢)
الى أن يقول :

(١) يقول : أبيت جائعا مكتفيا بالماء ايثارا على نفسى كما أضم الى أهلى غيرهم وأعولهم . والماء القراح : هو الماء الخالص الصرف .
(٢) ذات اللوث : ذات القوة . الحلس : كساء على ظهر البعير تحت البرذعة .

- وانى لمعط ما وجدت وقائل
- لموقد نارى لیسلة الريح أوقد
- وانى لقوال لدى البث مرجبا
- وأهلا اذا ما جاء من غير مرصد (١)
- وانى ليدعونى الندى فأجيبه
- وأضرب بيض العارض المتوقد (٢)
- وانى لحلو تعترينى مرارة
- وانى لتراك لما لم أعود (٣)
- فلا تعجلن يا قيس واربع فانما
- قصارك أن تلقى بكل مهند (٤)
- حسام وأرماع بأيدي أعزة
- متى ترهم يا ابن الخطيم تبلى (٥)
- ليوث لدى الأشبال تحمى عرينها
- مداعيس بالخطى فى كل مشهد (٦)
- كانت المعركة اذن بين الأوس والخزرج تتمثل فى قيس بن
الخطيم وقيس بن الأسلت من جانب ، وحسان بن ثابت وعبد الله
-
- (١) البث : الحزن والغم . الريح : الفزع والخوف .
المرصد : الطريق .
- (٢) أضرب بيض العارض : اسبق المطر فى البذل . والعارض :
السحاب .
- (٣) حلو تعتريه المرارة : أى ينفع ويضر .
- (٤) اربع : قف واقتصر . المهند : السيف .
- (٥) تبلى : تتحير .
- (٦) مداعيس : الدعس هو الطعن .

ابن رواحة من جانب آخر ، وقد استطاع شعراء الخزرج وعلى رأسهم حسان الصمود لشعراء الأوس كما استطاع فرسان الخزرج أن ينتصروا على فرسان الأوس في أيام كثيرة .

وحينما تتداخل شخصية حسان في شخصية قبيلته ويصبح الأصدقاء المتجاوبة ، والألحان ذات المقاطع المتألفة تتردد في كل منهما شخصية واحدة يبلغ حسان القمة في تصوير مكارم نفسه وتصور أمجاد قبيلته معا ، ونسمع تلك النغمات ذات قصائده المنبعثة من نفس فياضة ومن روح شاعرة ، ومن طبيعة مرتبطة ببيئتها ، منساقة مع فطرتها . لنسمع معا الأبيات التالية دون أن نتوقف في فهم معاني ألفاظها الغريبة حتى لا نقطع على أنفسنا ذلك التدفق في الاتفعال ، والتسلسل في التصوير . يقول (١) .

ألست بنعم الجار يولف بيته

كذي العرف ذا مال كثير ومعدما

وندما ن صدق تمطر الخير كفه

إذا راح فياض العشيات خضما (٢)

(١) من قصيدته التي مطلعها .

الم تسال الربيع الجديد التكلم

بمدفع اشدها فبرقة أظلم

(٢) فياض العشيات : الجواد . الخضم : البحر الكثير الماء

ويقصد الكريم الكثير العطاء .

- وصلت به ركنى ووافق شيتتى
 ولم ألك عضا فى الندامى ملوما (١)
 وأبقى لنا مر الحروب ورزؤها
 سيوفا وأدراعا وجمعا عرمرما (٢)
 اذا اغبر آفاق السماء وأمحلت
 كأن عليها ثوب عصب مسهما (٣)
 حسبت قدور الصاد حول ييوتنا
 قنابل دهما فى المحلة صيما (٤)
 يوافون بحرا من سميحة مفعما (٥)
 لنا حاضر فعم وباد كأنه
 شماريخ رضوى عزة ونكرما (٦)
 متى ما تزرنا من معد بعصبة
 وغسان نمنع حوضنا أن يهدما

-
- (١) العض : السبيء الخلق . الملووم : الذى يفعل ما يلام عليه .
 (٢) العرمرم : الكثير .
 (٣) أمحلت : أمحل الناس : اذا نزل بهم القحط . الثوب :
 العصب : ثياب يمنية موشاة .
 (٤) قدور الصاد : قدور النحاس : القنابل : جماعات الخيل .
 الصيم : القيام .
 (٥) الواغلون : الداخون ويقصد الذين يدخلون على القوم
 للطعام . سميحة : بشر بالمدينة . المفعم : الممتلىء .
 (٦) شماريخ رضوى : أعالى رضوى . وهو جبل .

بكل فتى عارى الأشاجع لآحه
 قراع الكمة يرشح المسك والدما (١)
 إذا استدبرت الشمس درت متوتنا
 كأن عروق الجوف ينضجن عندما (٢)
 ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق
 فأكرم بنا خلا وأكرم بنا ابنما
 نسود ذا المال القليل إذا بدت
 مروته فينا وان كان معدما
 وانا لنقرى الضيف ان جاء طارقا
 من الشحم ما أمسى صحيحا مسلما (٣)
 ألسنا نرد الكبش عن طية الهوى
 ونقلب مران الوشيح محطما (٤)
 وكائن ترى من سيد ذى مهابة
 أبوه أبونا وابن أخت ومحرمما

(١) الأشاجع : جمع أشجع وهو العصب الممدود فوق السلامى
 بين الرسغ الى أصول الأصابع . وعارى الأشاجع : أى أن عروق
 اليد نافرة لأن اليد نحيفة من ممارسة الحرب . لآحه : غيره .
 الكمة : الشجعان .

(٢) درت : امتلأت دما . العندم : دم الفزال وله رائحة طيبة .

(٣) نقرى : نكرم .

(٤) كبش السكتيبة : قائدها . الطية : النية . مران : جمع

مارن وهو الرمح اللين .

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحي

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما (١)

أبى فعلنا المعروف أن نتطق الخنا

وقائلنا بالعرف الا تكلمنا (٢)

فكل معد قد جزيئنا بصنعه

فبؤسى ببؤساها وبالنعم أنعما

في هذا الاطار الفنى الرائع يرسم حسان المثل العليا للشخصية الجاهلية كما يتوهم أنه يمثلها جميعا ، فمنزله مهبط الفقير والغنى ، كلاهما ينعم بضيافته ، وكلاهما يجد عنده الأمن والقرى ، وهو من خيرة الندماء اذا نادى الجواد الذى تمطر كفه الخير ، ثم هو أو قومه — فهما شيء واحد — أبطال المعارك ، ثم هم كرماء وهم أبناء البيوتات العريقة المجد وهم .. وهم .. وهم .. الخ ، وهو عندما يعدد تلك الصفات جميعا يرسمها بصورها الجاهلية التى تصبغها ألوان الصـحراء ، وتمدها بموادها وعناصرها .

وتتسابق الصور ، وتتوالى المعانى التى يعبر بها حسان عن ذاته الجاهلية وعن صفته القبلية فى كل القصائد التى يمكننا أن نردها له وأن نحدد جاهليتها ومن هذه القصائد تلك التى مطلعها :
لمن منزل عاف كأن رسـومه

خياعيل ريط سـابرى مرسوم

(١) الجففات : القصاع . الغر : البيض .

(٢) الخنا : الذل .

يقول فيها :

متى تسألنى عنا تنبى بأننا

كرام وأنا أهل عز مقدم

وأنا عرايين صقور مصالت

نهر قناة متنها لم يوصم (١)

لعمرك ما المعتز يأتى بلادنا

لنمنعه بالضائع المتهمم (٢)

ولا ضيفنا عند القرى بمدفع

وما جارنا فى النائبات بسلم

وما السيد الجبار حين يريدنا

بكيد على أرماحنا بمحرم

نبيح حمى ذى العز حين نكيده

ونحمى حمانا بالوشيج المقوم (٣)

ونحن اذا لم ييرم الناس أمرهم

نكون على أمر من الحق مبرم

ولو وزنت رضوى بحلم سراتنا

لمال برضوى حلمنا ويرمرم (٤)

ونحن اذا ما الحرب حل صرارها

وجادت على الحلاب بالموت والدم

(١) عرايين القوم : ساداتهم ، مصالت : جمع مصلت ، ورجل

مصلت ماض فى الأمور .

(٢) المعتز : السائل .

(٣) الوشيج : الرمح .

(٤) رمرم : جيل .

ولم يرج الا كل أروع ماجد

شديد القوى ذى عزة وتكرم

نكون زمام القائدين الى الوغى

اذا الفشل الرعديد لم يتقدم

فنحن كذاك الدهر ما هبت الصبا

نعود على جهالهم بالتحلم

فلو فهموا أو وفقوا رشد أمرهم

لعدنا عليهم بعد بؤسى بأنعم

وانا اذا ما الأفق أسمى كأنما

على حافتيه مسيا لون غدم

انظعم فى المشتى ونظعن بالقنا

اذا الحرب عادت كالحريق المضم

وتلقى لدى أياتنا حين نجتدى

مجالس فيها كل كهمل معمم

رفيع عماد البيت يستر عرضه

من الذم ميمون النقية خضم (١)

جواد على العلات رجب فناؤه

متى يسأل المعروف لا يتجهم

(١) ميمون النقية : مظفر فيما يفعل . الخضم : الجواد .

ضروب بأعجاز القداح اذا شتا

سريع الى داعى الهياج مصمم (١)

أشم طويل الساعدين سميدع

معيد قراع الدارعين مكلم (٢)

وهنا أيضا يردد حسان مثل الجاهليين كما يراها في قومه ، فهم كرماء يطعمون في الشتاء حين يعز الطعام ويكثر احتياج الناس ، ويقدمون المعونة تحت أية ظروف فهم كرماء « على العلات » لا يترثون في العطاء مهما قست عليهم الحياة ، وقل ما بأيديهم من غوث ، وهم شجعان بعد ذلك ، فالظالم له أرواحهم مشرّبة مشتاقة الى الدماء ، والجبار له أبطالهم شديدا والقوى ماضو العزم ، حديدو القواد ، قادرون على القراع ، مدربون على الصراع . أما قوادهم فهم المتقدمون في ميادين القتال حين تجبن أفئدة الشجعان ويهرب قواد الجيوش رعبا وخشية . وهم بعد هذا كله أهل حلم وأصحاب حكمة ، وان حكمة كهالهم وحلم شبابهم اذا وزنا بجمال رضوى لفاقاها ثقلا ورسوخا .

وليست صور حسان هذه غريبة على الجاهليين ، فهي التي تردد في شعرهم ، يلجأون اليها ساعة الفخر والتغنى بماثر القبيلة . غير أننا نلاحظ أن الاحساس الذي يلف هذه المعاني جميعا

(١) ضروب بأعجاز القداح : صاحب ميسر ، ولعب الميسر

من شيم كرام الجاهليين .

(٢) السميدع : الكريم المعتدل القامة والشجاع . مكلم :

مجروح .

مستمد من قوة الخزرج ومن ماضيها المجيد في الجاهلية ، وصادر
عن ايمان قوى للشاعر بهذا الماضى وهذه الأمجاد ، ثم بعد ذلك
له قدرة فائقة في التعبير عن كل هذا في سلاسة ويسر ، وبساطة
وتلقائية .

وشعر حسان الجاهلي متملىء بشمل هذه النعمات القوية التى
تثبت قدرته وتفوقه كشاعر قبلى استطاع أن يدفع عن قبيلته
غوائل شعراء القبيلة المنافسة ، وأن يرد بقوة وغلبة عليهم
مفاخراتهم ومناقضاتهم ، لذلك يمكننا أن نقول ان أهم دور قام
به حسان في جاهليته أنه استطاع أن يحتل مركز الشاعر القبلى
الذى يعبر عن عصبية القبيلة ويشيد بأمجادها ويعلن انتصاراتها ،
ويرفع من شأو رجالاتها ويرد على أعدائها ، ويصمد لمناقضيتها
ويقاوم منافسيها أكثر من نصف عمره زمنا ، وعمره كله فنا !!

القسم الأول
حسان في الجاهلية

ب - حسان الشاعر المادح :

لم يقتصر حسان على تمثيله لقبيلته في معاركه الفنية ، واتجه الى عقد صداقات مع الامارات الشمالية ومدح ملوكها وأمرائها .

ومن يدرس الشعر الجاهلي يلاحظ أن شعر المدح الذي أنشده أصحابه للتكسب به قد كثر منذ منتصف القرن السادس الميلادي ويرجع ذلك الى عدة أسباب من أهمها : ازدهار الحياة في الامارتين الشمالييتين في الحيرة وغسان في هذا الوقت ، وازدياد ثرائهما وسلطانهما ، فاتجه الشعراء الى هذين المنبعين في رحلات مستمرة ومنتظمة للارتواء منهما ، ومن الشعراء من استقر فيهما استقرارا دائما نديما لملوكهما ، ومغردا في رياضهما كالشاعر العظيم النابغة الذبياني .

وكان البلاط في هاتين الامارتين يعج بالشعراء من كل نواحي الجزيرة العربية وكأنه صورة مصغرة لما سوف يحدث فيما بعد في بلاط الأمويين والعباسيين .

زار حسان الغساسنة ومدحهم ، وكان اتصاله بهم اتصالا بذوى قرباه ، فقد مهد له نسبه فيهم أن ينزل في بلاطهم وأن يجيزوه في كل مرة ينزل فيها عليهم ، أما زيارته للمنادرة فقد اختلف فيها وان كان هناك نص يشير الى حدوثها .

لم يكن اتصال حسان بالغساسنة ونيل عطاياهم في أول الأمر

سهلا ، فالمنافسون في بلاطهم شعراء متفننون قد احتلوا من قلوب الملوك والأمراء المكانة الأولى ، وكان على حسان أن يبحث عن موضع خال وسط هذا الزحام ، وكان حسان في هذه الفترة صديقا لأمير غسانى هو جبلة بن الأيهم انقطع له مدة اذ كان يقدم عليه ويقيم سنة في أهله ، ثم رأى أن يتصل بالملك عمرو ابن الحارث الأصغر عسى أن يصيب مالا أكثر ، وشهرة أكبر ، فقد روى أنه قال : لو وفدت على الحارث فان له قرابة ورحما بصاحبى وهو أبذل الناس لمعروف ، وقد يس منى أن أقدم عليه لما يعرف من انقطاعى الى جبلة ، فخرجت في السنة التى أقيم فيها بالمدينة حتى قدمت على الحارث وقد هيات مديحا ، فقال لى حاجبه وكان لى ناصحا : ان الملك قد سر بقدمك عليه وهو لا يدعك حتى تذكر جبلة ، فاياك أن تقع فيه فانه يختبرك ، فانك ان وقعت فيه زهد فيك ، وان ذكرت محاسنه ثقل عليه ، فلا تبتدىء بذكره ، فان سألك عنه فلا تطنب فى الثناء عليه ولا تعب ، امسح ذكره مسحاً وجاوزه ، فانه سوف يدعوك الى الطعام وهو يثقل عليه أن يؤكل طعامه وأن يشرب شرابه فلا تضع يدك فى شئ حتى يدعوك اليه . قال فذكرت له ذلك . ثم دعانى الحارث فسألنى عن البلاد والناس وعن عيشنا فى الحجاز ، وكيف ما بيننا من الحرب ، وكل ذلك أخبره حتى انتهى الى ذكر جبلة . فقال : وكيف تجد جبلة فقد انقطعت اليه وتركتنا . فقلت له : انما جبلة منك وأنت منه . فلم أجر معه فى مدح ولا ذم ، وفعلت فى الطعام والشراب كما قال لى الحاجب . قال : ثم قال لى

الحاجب : قد بلغنى قدوم النابغة وهو صديقه وأنس به ، وهو قبيح أن يجفوك بعد البر ، فاستأذن من الآن فهو أحسن . فاستأذنته ، فأذن ، وأمر لى بخمسمائة دينار وكساء وحملان فقبضتهما وانصرفت الى أهلى (١) .

يتضح من هذه الرواية موقف حسان من البيت الغسانى وخاصة من الأمير جبلة بن الأيهم فقد كانت صلة حسان به قوية ، وصداقته به متصلة فى الجاهلية والاسلام وقد مدحه حسان بقصائد جيدة ، وعرف له جبلة هذا حتى بعد أن تنصر وسافر الى بلاد الروم . فقد حدث أن أرسل معاوية (٢) اليه رسولا ليعود الى الاسلام ، فرد جبلة الرسول وقد سأله عن حسان ، فقال له الرسول : شيخ كبير قد عمى . فدفع اليه جبلة ألف دينار وقال : ادفعها الى حسان . قال الرسول : فلما قدمت المدينة ودخلت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت فيه حسان بن ثابت ، فقلت له : صديقك جبلة يقرأ عليك السلام . قال : فهات ما معك . فقلت : يا أبا الوليد كيف علمت . قال ما جاءتنى منه رسالة قط الا ومعها شيء (٣) . وعن الأصمعى (٤) : أن جبلة بعث اليه بخمسمائة دينار وكسى . وقال للرسول : ان وجدته قد مات فابسط هذه الثياب على قبره ، واشتر بهذه الدنانير ابلا فانحرها

(١) الأغانى ١١ : ٣٩ .

(٢) وذلك أثناء ولايته فى الشام .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ١٧١ .

(٤) المرجع السابق .

على القبر . فوجده حيا ، فأخبره ، فقال حسان : لوددت انك وجدتني ميتا .

وقد دافع حسان عن جبلة بن الأيهم أمام عمر عندما ارتد جبلة وتنصر . فقد جاء أنه عندما علم عمر بارتداد جبلة شق عليه ، وقال لحسان : يا أبا الوليد : أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانيا ؟ قال : انا لله وانا اليه راجعون . ولم ارتد ؟ قال : لطمه رجل من مزينة . فقال حسان : وحق له ! فقام اليه عمر رضى الله عنه بالدرة فضربه بها .

ولم يكن حسان يستطيع أن يبلغ في فن المدح ما بلغه زهير والنابعة والحطيئة والأعشى وأمثالهم من الشعراء المداحين بل لقد خاف عليه عمرو بن الحارث أن يسمح له بالانشاد أمام النابغة الذبياني وعلقمة بن عبدة حتى لا يكون أقل منهما فنا . قال أبو عمرو الشيباني : قال حسان بن ثابت : قدمت على عمرو ابن الحارث فاعتاص ^(١) الوصول عليّ اليه ، فقلت للحاجب بعد مدة : ان أذنت لى عليه والا هجوت اليمن كلها ثم انقلبت عنكم ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، فوجدت عنده النابغة وهو جالس عن يمينه وعلقمة بن عبدة عن يساره . فقال لى : يا ابن الفريعة ، قد عرفت عيصك ^(٢) ونسبك فى غسان ، فارجع فانى باعث اليك بصلة سنية ، ولا أحتاج الى الشعر فانى أخاف

(١) اعتاص : صعب .

(٢) العيص : المتب .

عليك هذين السبعين : النابغة وعلقمة أن يفضحاك ، وفضيحتك
فضيحتي وأنت والله لا تحسن أن تقول :

رقاق النعال طيب حجزاتهم

يحيون بالريحان يوم السباب^(١)

فأبيت وقلت لا بد منه . فقال : ذاك الى عمي^(٢) فقلت
لهما : بحق الملك الا قدمتماني عليكما . فقالا : قد فعلنا . فقال
عمرو بن الحارث هات يا ابن الفريعة : فأنشدت :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل

بين الجوابي فالبضيع فحومل

فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل^(٣) عن موضعه مسرورا
حتى شاطر وهو يقول : هذا وأبيك الشعر الذي يعللاني به منذ
اليوم ، وهذه والله البتارة التي قد بترت المدايح ! أحسنت
يا ابن الفريعة ! هات يا غلام ألف دينار مرجوحة وهي التي يزن
كل دينار فيها عشرة دنانير . فأعطيتها ثم قال : لك على في كل
سنة مثلاً .

وفي رواية أخرى أنه أنشد بعد النابغة وعلقمة ، فلما سمع
الحارث قصيدة النابغة التي أولها :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

(١) قصيدة النابغة التي مطلعها :

كلينى لهم يا أميمة ناصب

وليل أقاسيه بطيء الكواكب

(٢) يقصد النابغة وعلقمة .

(٣) يزحل : يتنحى ويتقلقل .

قال الحارث : لقد ذهب نصفى .

ولما أنشد علقمة :

طحا بك قلب فى الحسان طروب

بعيد الشباب عصر حان مشيب

قال : لقد ذهب نصفى الآخر .

فلما أنشد حسان قصيدته السابقة قال له الحارث : أدنه ،

أدنه ، لعمرى ما أنت بدونهما .

ونحن لا يهمنى النص الحرفى لكل تلك الروايات بقدر ما يهمنى أنها تصور جميعا قضية واحدة وهى أن حسان كان يشعر فى أعماقه بأنه ليس فى قدرة كبار المادحين كالنابغة وعلقمة ، وأن المدحوحين كانوا ينظرون إليه نفس النظرة أيضا .

وقد حكى أنه لما أراد الورود على عمرو بن الحارث قالت له بعض نساء الأمراء : عليك بمدارسة الشعر ^(١) وكأنا كان حسان يحتاج الى زيادة خبرة بهذا الفن قبل أن يقدم على الملوك ، ففرق كبير بين أن يقول الشاعر الشعر بين أفراد قبيلته فتدفعهم العصبية الى تمجيده ولو كان ضعيفا وبين أن يقدم به على ملك من الملوك ينافس به شعراء مختارين لينال جوائزه .

وربما كانت أهم قصيدة جاهلية بقيت لحسان فى مدح الغسانيين هى التى مطلعها :

أسألت رسم الدار أم لم تسأل

بين الجوابى فالبضيع فحومل

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٤ : ١٢٦ .

وقد مدح بها الملك الغساني عمرو بن الحارث .
وقد استطاع حسان أن يبلغ القمة الفنية في هذه القصيدة
في مدح الغسانيين ووصف مجالسهم ومنتدياتهم ، فهم أعزة
أمجاد لا يجروء ملك أن يحتك بهم أو أن ينقل عنهم صفة
أو مكرمة ، لأنهم أبناء ملك عظيم وهو الحارث الأعرج ابن
أبى شمر الغساني وأمه مارية ذات القرطين المشهورين ابنة ملك
الرومان . وهم يسقون الخمر لأضيافهم ويمدون الموائد لكل
مقبل عليهم ، لا يبالون بمن نزل بهم ، ولا يروعهم جمعهم قل
أو كثر . فهم ملوك كرماء يعيشون في سعة ، ويسقيهم ولدانهم
الحسان الرحيق الشهي ، فهم ليسوا صعاليك فقراء يرسلون
ولدانهم لنقف الحنظل كما تفعل العرب . يقول :

دار لقوم قد أراهم مرة

فوق الأعـزة عزهم لم ينقل

لله در عصاة نادمتهم

يوما بخلق في الزمان الأول (١)

أولاد جفنة عند قبر أبيهم

قبر ابن مارية الكريم المفضل

يسقون من ورد البريص عليهم

بردى يصفق بالرحيق السلسل (٢)

(١) جلق : دمشق أو موضع قريب منها .

(٢) البريص : نهر بدمشق وكذلك بردى .

يسقون درياق المدام ولم تكن
تعدو ولائدهم لنقف الحنظل (١)
يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شم الأنوف من الطراز الأول
* * *

ولا ينسى الشاعر أن يصف شجاعتهم وجسارتهم في الحروب
وكيف يسيرون الى الحرب في حللهم ودروعهم . يقول :
يمشون في الحلل المضاعف نسجها
مشى الجمال الى الجمال البزل (٢)
الضاربون الكبش يبرق بيضه
ضربا يطيح له بنان المفصل (٣)
* * *

ويصل حسان الى صورة من أجمل ما خلق في شعره ، تلك
الصورة التي يعبث فيها عبث الرجل المجرب لا الفتى الغض ، فهو
يقبل على الخمر وعلى مجالسها بقلب ولهان ، ينادم أمراء جفنة
في قصورهم ، ويسعى بها اليه الحسان يسقونه مرة بعد مرة
فلا يرتوى . نعم ! انه لا يشربها ممزوجة بالماء وانما يطلبها صرفا
لم تقتلها قطرة منه ، وعلى كل فكلا النوعين يخدر أطرافه ، ويشير

-
- (١) نقف الحنظل : شقه وتكسيه .
(٢) البعر البازل : الذي استكمل السنة الثامنة من عمره .
(٣) الكبش : السيد أو القائد .

فيه النشوة بعد أن جاش العصير ورقض الحب فوقه . يقول :

اما ترى رأسى تغير لـسونه

(١) شمطا فأصبح كالثغام المحول

ولقد يرانى موعـدى كأنتى

(٢) فى قصر دومة أو سواء الهيكل

ولقد شربت الخمر فى حانوتها

(٣) صهباء صافية كطعم الفلفل

يسعى على بكأسها منتطف

(٤) فيعلنى منها ولو لم أنهل

ان التى ناولتنى فرددتها

قتلت — قتلت — فهاتها لم تقتل

كلتاهما حلب العصير فعاطنى

بزجاجة أرخاهما للمفصل

بزجاجة رقصت بما فى قعرها

(٥) رقص القلوص براكب مستعجل

(١) الشمط : بياض شعر الرأس يخالطه سواده . والثغام : نبات ينبت أخضر اللون ثم يبيض اذا يبس . المحول : التى أتى عليه الحول .

(٢) موعده : هم أعداؤه الذين يوعدونه بالشر .

(٣) الحانوت : الحانة . الصهباء : الخمر التى تعصر من عنب أبيض .

(٤) المنتطف : أى الذى فى أذنه قرط . يعلنى : يسقيني مرة بعد مرة . والعلل الشرب الثانى والنهل الشرب الأول .

(٥) القلوص : الإبل الفتية .

لذلك ليس عجباً أن لا يشعر الشاعر بالوقت الذى يمر عليه
وهو عندهم فكأن هذا الوقت لم يمر عليه قط . يقول :

فلبثت أياماً طوالاً فيهم

ثم ادكرت كأنتى لم أفعل (١)

ثم لا ينسى أن يتخذ مثل هذه الزيارات موضوعاً للفخر
فليس كل شاعر بقادر على أن ينال رضا الملوك أو يكسب ودهم :
وتزور أبواب الملوك ركابنا ومتى نحكم فى البرية نعدل

* * *

وتتكرر المقطوعات التى يمدح فيها حسان الغساسنة ، ورغم
أنها قليلة جداً فانها تصور ذلك الشعر الكثير الذى قيل فيهم
وضاع مع الزمن .

وحينما يمدح حسان الغساسنة ، فانه لا يسلك سلوك
الشعراء الغرباء عنهم يمدحونهم ليأخذوا عطاءهم فحسب ، ولكنه
يمدحهم ليفتخر بهم لأنهم أخواله الذين استطاعوا أن يبنوا لهم
مجداً ، فمجدهم مجده ، وذكر مجامدهم فخر له . يقول :

رب خال لى لو أبصرته

سبط المشية فى اليوم الخصر

عند هذا الباب اذ ساكنه

كل وجه حسن النقبة حر

يوقد النار اذا ما أطفئت

يعمل القدر بأبجاء الجزر (٢)

(١) ادكرت : تذكرت . (٢) أبجاء الجزر : أطايبها .

من يغر الدهر أو يأمنه
 من قيلول بعد عمرو وحجر
 ملكا جبل الثلج الى
 جانبى أيلة من عبد وحجر
 ثم كانا خير من نال الندى
 سبقا الناس باقساط وبر
 فارسى خيل اذا ما أمسكت
 ربة الخدر بأطراف الستر
 أتينا فارس فى دارهم
 فتناها بعد اعصام بقر (١)
 ثم صاحبا بين غسان اصبروا
 انه يوم مصاليت صبر (٢)
 الى أن يقول
 منهم أصلى فمن يفخر به
 يعرف الناس لفخر المفتخر
 نحن أهل العز والمجد معا
 غير أنكاس ولا ميل عسر (٣)

-
- (١) تناهت بعد اعصام بقر : أى انتهت بعد التحصن بالهزيمة .
 والقر : الشدة .
 (٢) مصاليت : جمع مصلت وهو الماضى فى الأمور ، الحازم .
 (٣) أنكاس : جمع نكس وهو الرجل المقصر عن النجدة
 والكرم . والأميل : الجبان . العسر : جمع أعر وهو الذى
 يعمل بشماله .

فسلوا عنا وعن أفعالنا

كل قوم عندهم علم الخبر

وشعر حسان الجاهلى فى صديقه جبلة بن الأيهم قليل جدا
رغم أن الروايات تشير الى استمرار زيارته له عاما بعد عام . وقد
بقيت مقطوعة فى مدحه يصف فيها حسان عيد الفصح عند
المسيحيين يقول فيها : (١)

قد دنا الفصح فالولائد ينظمه ن قعودا آكلّة المرجان (٢)
يجتنين الجادى فى ثقب الرء ط عليها مجاسد الكتان (٣)
لم يعلنن بالمغافر والصم غ ولا تقف حنظل الشريان (٤)
ذاك معنى من آل جفنة فى الدهر ر وحق تعاقب الأزمان
قد أرانى هناك حق مكين عند ذى التاج مقعدى ومكانى

المعانى التى مدح بها حسان اذن ملوك الشام هى المعانى
التي كان يمدح بها الملوك فى الجاهلية فهم كرام أثرياء ، دورهم
تستقبل كل وافد ويقدمون له الطعام والخمر ، ويلبسون أجمل

(١) مطلعها :

عن الدار أوحشت بمعيان

بين أعلى السيرموك فالخمان

(٢) الفصح : عيد قيامة المسيح . الأكلة : جمع أكليل وهو

التاج .

(٣) الجادى : الزعفران . الثقب : جمع ثقبه وهو ازار يشد

كالسراويل . الریط : الثياب اللينة الرقيقة البيضاء . المجاسد :

القمصان .

(٤) المغافر : نوع من الصمغ . الحنظل : ثمرة مستديرة

مرة .

الملابس ، ويفترشون أفخر الرياش ، وهى أشياء لا يجدها البدوى فى صحرائه ، وحين يصف موائدهم وأعيادهم فانما هى وسيلة لمدهم والتقرب اليهم ولا شك أن مثل هذه الزيارات أثرت فى فنه ، فهو لم يكن يستطيع أن يرسم صورة عيد الفصح كما رسمها فى الأبيات السابقة دون أن يرى الفتيات وهن ينظمن الأكاليل المزينة بالجواهر ، أو يعطرن أجسادهن وملابسهن بالزعفران ، ثم يقارن بين أولئك الفتيات وفتيات البدو فيقول انهن لسن ممن يجتنبن صمغ المغافر وينقطن الحنظل لاستخراج ما فيه .

وقد مدح حسان جبلة فى الاسلام حين أرسل اليه هدية من ثياب وأموال فقال :

ان ابن جفنة من بقية معشر لم يغذهم آبائهم باللوم
وأتيته يوما فقرب مجلسي وسقى براحته من الخرطوم
لم ينسنى بالشام اذ هو ربها كلا ولا متنعرا بالبروم
لم ينس حسان اذن جبلة ، ولم ينس جبلة أيضا ، وكأن تلك الصداقة العريقة التى توطدت عراها فى الجاهلية لم تستطع الأيام واختلاف الأديان أن تفصمها ، ولا غرو فقد تحمل حسان أن يضربه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالدرة فى سبيل جبلة عندما دافع عنه وأراد أن يقول كلمة الحق التى يشعر بها دون خوف أو وجل .

ونستطيع الآن أن نسأل هل اتصل حسان بملوك المناذرة كما اتصل بملوك الغساسنة فى جاهليته ؟ ان رأيى فى هذا الموضوع

وما تدل عليه النصوص أنه اتصل بهم وان لم يكن هذا الاتصال مستمرا كما كان عليه مع الغساسنة ، فلا شك أنه كان يسمع عن بلاط النعمان بن المنذر ووفود الشعراء عليه واغداقه العطايا والجوائز الثمينة مقابل مدحهم له . ولم يكن حسان بأقل من هؤلاء الشعراء طمعا في أن ينال مثل ما ينالونه . قال حسان : رحلت الى النعمان فلقيت رجلا ، فقال : أين تريد ؟ قلت : هذا الملك . قال : فانك ان جئته متروك شهرا ثم يسأل عنك رأس الشهر ثم أنت متروك شهرا آخر ثم عسى أن يأذن لك ، فان أنت خلوت به وأعجبته فأنت مصيب منه ، وان رأيت أبا أمامة النابغة فاطعن فانه لا شيء لك . قال : فقدمت عليه ففعل بى ما قال ، ثم خلوت به وأصبت مالا كثيرا ونادمته . فبينما أنا معه فى قبة اذ جاء رجل يرتجز حول القبة :

أنمت أم تسمع رب القبة يا أوهب الناس لعنس صلبة
ضاربة بالمشفر الأذبة ذات نجا فى يديها جلبة

فقال النعمان : أبو أمامة ! فأذنوا له ، فدخل فحياه وشرب معه ووردت النعم السود ، ولم يكن لأحد من العرب بغير أسود يعلم مكانه ، ، ولا يفتحل فحلا أسود . فاستأذنه أن ينشده فأنشده كلمته التى يقول فيها :

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم بيد منهن كوكب
فدفع اليه مائة ناقة من الابل السود ومعها رعاؤها ،
فما حسدت أحدا حسدى النابغة لما رأيت من جزيل عطيته
وسمعت من فضل شعره .

وجاء في ديوان حسان اشارات في قصائد له تدل على أنه زار
المناذرة وذلك عندما يقول :

وأنا الصقر عند باب ابن سلمى

يوم نعمان في الكبول مقيم
قابن سلمى هو نعمان بن المنذر اللخمي ، ونعمان الذي في
الكبول هو نعمان بن مالك بن نوفل بن عوف كان حبسه نعمان
ابن المنذر مع آخرين فوفد فيه حسان في قومه فأطلقوا لهم .
وفي قصيدته التي يرد فيها على قيس بن الخطيم والتي أشرنا
إليها من قبل ويثبتها القرشي كاحدى مذهباته يقول حسان مادحا
النعمان بن المنذر :

أكلفها أن تدلج الليل كله

تروح الى باب ابن سلمى وتغتدى

تزور امرأ أعطى على الحمد ماله

ومن يعط أثمان المحامد يحمده

وألفيته بحرا كثيرا فضوله

جوادا متى يذكر له الخير يزدد

وعلى هذا فليس من المستبعد أن يكون حسان قد وفد على
النعمان ومدحه أو زاره زيارة شاعرة لينال عطاياه وان كان
الديوان لا يضم قصائد أو مقطعات قالها في مدحه .

ح - حسان الشاعر الانسان :

هل استغرق فنا الفخر والمدح كل شعر حسان ، أم فرغ
لنفسه بعض الأحيان .

لقد استطعنا أن نعرف بعض ملامح شخصية هذا الشاعر من خلال هذين الموضوعين اللذين يرتبطان بطبيعة الحياة الجاهلية والمجتمع القبلى العربى ، غير أن الشاعر حينما يفرغ لنفسه يتأملها ويتأمل الحياة من خلالها تظهر ملامح أخرى من شخصيته لا يظهرها الفخر أو المدح ، لأنه عادة يكون فى هذين الموضوعين شاعرا غيريا ، يعطى الآخرين ولا يعطى نفسه ، ويصف مشاعر الآخرين ، ولا يصف مشاعره اللهم الا اذا حاول أن يشارك فى أحداث الآخرين وفى هذه الحالة تذوب شخصيته فى شخصية الغير ويصبحان شيئا واحدا ، وهنا يعز على الباحث أن يفرق بين العنصرين ، كما يصعب عليه أن يضع يده على ذاتية الشاعر بمفردها .

ونحن لا نجد فى ديوان حسان قصائد أو مقطوعات أفردها الشاعر لنفسه يعبر فيها عن دخالها ، ويصور فيها نوازعه ومشاعره ، ولكننا نجد هذه المقطوعات ضمن القصائد التى يكون فيها غيريا ، يمدح أو يفخر ، ويسلك فيها الشاعر مسلك السابقين عليه حينما يمهدون للموضوع الأسمى بمقدمات غزلية أو طليية ثم يتبعون ذلك بوصف للراحلة أو الطريق ، وقد ينتهون من موضوعهم الأسمى بنظرات فى الحياة أو حكمة تجرى على لسان الناس . ومن خلال هذه المقدمات وهذه النهايات يمكننا أن نبحث عن بعد آخر من أبعاد هذه الشخصية المخضمة .

وربما كان أهم الموضوعات التى عبر فيها الشاعر عن أحاسيسه ومشاعره ، ورسم فيها صورة لنفسه من بعض جوانبها

الخفية علينا هي موضوعات الغزل والمقدمة الطللية ووصف الطبيعة عامة والخمر خاصة . وسنقف عند هذه الموضوعات باحثين عن ذات الشاعر وعن ملامح شخصيته لتكتمل لنا صورته الجاهلية كما كانت عليه .

١ — الغزل والمقدمة الطللية : ربما لم يعرف لحسان امرأة وله بها وغنى بجمالها في شعره كما عرف لغيره من شعراء الجاهلية ، وهو في الوقت نفسه ليس كغيره من الشعراء الذين يشببون بنساء كثيرات ، انما يتكرر اسم شعثاء في معظم قصائد الديوان ، ثم تليها عمرة . وكلا الاسمين في رأى كثير من الرواة — وكما بينا من قبل — زوج له طلقها وأكثر من ذكرها في شعره مشبها ونادما .

والمقدمة الطللية تمتزج بذكرى الحبيبة وأيام العشق الأولى وكيف ولت تلك الأيام بعد أن هجرته ودرست الأطلال .

أسألت رسم الدار أم لم تسأل

بين الجوابى فالبضيع فحومل

فالمرج مرج الصفرين فجاسم

فديار سلمى درسا لم تحلل

أقوى وعطل منهم فكأنه

بعد البلى آى الكتاب المجل

دمن تعاقبه الرياح دوارس

والمدجنات من السماك الأعزل (١)

(١) المدجنات : الغيوم الممطرة . السماك الأعزل : نجم .

فالعين عانيسة تفيض دموعها

لمنازل درست كان لم توءل

وحبيبة حسان في الجاهلية تعرف الشام وترحل اليه ، كما
تعرف الحجاز وتنزل فيه ، وهي صفة يضيفها حسان الى صاحبه
وكأنما تنفرد بذلك عن صويحاتها .

انظر خليلي يبطن جلق هل تؤنس دون البلقاء من أحد
أجمال شعءاء قد هبطن من المحبس بين الكثبان فالسند
يحملن حورا حور المدامع الر يط ويبض الوجوه كالبرد
من دون بصرى ودونها جبل الثلج عليه السحاب كالقدد

وقد يقف حسان حزينا ساهرا يث الهوى ويشكو الفراق
دون أن ينظر الى الأطلال أو يصف الدمن ، بل ينظر الى السماء
يبحث فيها عن حب مفقود فتحتد نغماته وتشوبها حسرة ، وتعنف
غنائيته وتكتسب شفافية . ان ليل الشاعر طويل ، يسهر ليرعى
النجوم ولا يقربه النوم حتى يغيب آخر نجم في السماء ولكنها
نجوم بطيئة السير اذا غاب منها نجم فهناك أخرى لا تغيب :

تطاول بالخممان ليلي فلم تكن تهم هوادى نجمه أن تصوبا
أبيت أراعيها كأني موكل بها ما أريد النوم حتى تغيبا
اذا غار منها كوكب بعد كوكب تراقب عيني آخر الليل كوكبا
غوائر تترى من نجوم تخالها مع الصبح تتلوها زواحف لغبا

وهو يخاف الفراق الذي يأتى بغتة فيفرك الأحبة على غير
انتظار ، وتشيب له الرأس على غير موعد . واذا حدث هذا الفراق

فالطبيعة كلها تمهد له ، فينعب الغراب ، وتجنح شمس النهار
لتظلم الدنيا ، وتضيق الحياة به . ولكنه يلوم نفسه وكأنه يعزيها
لأنه استسلم للهوى بعد أن لقي منه العذاب ، وحن الى الصبا
وقد بلغ الأربعين . يقول :

أخاف فجاءات الفراق بيغته
وصرف النوى من أن تشت وتشتعا
وأيقنت لما قوض الحى خيمهم
بروعات بين تترك الرأس أشيا
وأسمعك الداعى الفصيح بفرقة
وقد جنحت شمس النهار لتغربا
وبيّن فى صوت الغراب اغترابهم
عشية أوفى غصن بان فطربا
وفى الطير بالعلياء اذ عرضت لنا
وما الطير الا أن تمر وتعبا
غداة انبرى قلبى ينازعه الهوى
أنازع نفسى أن أقوم فأركبنا
وكيف ولا ينسى التصابى بعدما
تجاوز رأس الأربعين وجربا
وقد بان ما يأتى من الأمر واكتست
مفارقة لونا من الشيب مغربا

ولا يقف حسان كثيرا عند وصفه لجسم صاحبه على عكس
ما يفعل أغلب الشعراء الجاهليين ، وان فعل ذلك فانما يرسم

لها صورة سريعة وكأنه لا يعنيه الا وقع جمالها في نفسه ، فهو مصور تأثرى أكثر منه مصورا واقعيا حسيا . يقول :

جنية أرقنى طيفه

يذهب صباحا ويرى في المنام
هل هي الا ظلية مظفل

مألفها السدر بنغی برام
تزوجی غزالا فاترا طسرفه

مقارب الخطو ضعيف البغام
كأن فاهــــا ثعب بارد

شجت بصها لها سورة
في رصف تحت ظلال الغمام

من بيت رأس عتقت في الخيام
عتقتها الحانوت دهرا فقد

مر عليها فرط عمام فعام
تدب في الجسم ديبيا كما

دب دی، وسط رقاق هیام

ذلك هو تأثير صاحبته في نفسه ، فهو لا يصف مظهرها الخارجى كما يفعل امرؤ القيس مثلا وانما يصف تأثيرها فيه ، فهى كالغزال الصغير يثير في نفسه الحنان لضعف جسمه وخفوت صوته ، وهى كالخمر تثير في جسمه لذة الانتشاء والسكر ، وهى لذة عارمة كتلك التى تثيرها خمر معتقة دهرًا طويلا .

٢ - الخمريات : الخمر مظهر من مظاهر الفتوة الجاهلية ،

فالسيد الحر الغنى هو الذى يشربها ويبدل ماله فى مجالسها ،
وكان حسان فتى من فتيان الخزرج ، فليس عجيبا أن يكون
مُدلّها فى حبها ، مقبلا على منتدياتها ، مهينا ماله فى سبيلها .

وقد ارتبطت المقدمة الغزلية والطللية عنده بوصف الخمر
وتأثيرها ومجالسها ، ويعتبر حسان أحد شعراء الخمر الجاهليين ،
ويظهر أن تردده على بلاط الغساسنة بشكل منتظم أتاح له الفرصة
ليصور فى شعره مجالس شربهم ، وأندية لهوهم .

ومن أخباره الطريفة فى هذا الشأن أنه دخل بيت خمار فى
الجاهلية ومعه أعشى بكر بن وائل فاشتريا خمرا وشربا فنام
حسان ثم انتبه ، فسمع الأعشى يقول للخمّار : كره الشيخ
الغرم . فتركه حسان حتى نام ثم اشترى خمر الخمار كلها ، ثم
سكبها فى البيت حتى سالت تحت الأعشى . فعلم الأعشى أنه
سمع كلامه فاعتذر اليه . وقد أشار حسان الى هذا الخبر فى
قوله :

ولسنا بشرب فوقهم ظل بردة

يعدون للخمّار تيبسا مفصدا

وقد وقفنا فى عرضنا لزيارات حسان للغساسنة عند وصفه
لمجالس خمرهم ومدحه لهم بهذه المكّمة الجاهلية وهى تقديم
الخمر للأضياف . وقد برع حسان فى وصف الغناء واللهو اللذين
يصحبان مجالس الشراب ، وكان حسان يحب هذا الغناء ويتعشق
هذا اللهو ويعبر عن هذا كله فى شعره . وهنا نلمح عنصرا من
عناصر شخصيته ، فهو رجل مرح مقبل على الحياة ، يغترف من

لذائذها كما تشتهي نفسه ، وينال من أطايبها ما يتفق وهواه .
يقول معبرا عن كل ذلك :

رب لهو شهادته أم عمرو
بين بيض نواعم في الريـط
مع ندامى بيض الوجوه كرام
نبهوا بعد خفقه الأشرط
لكميت كأنها دم جوف
عتقت من سلافة الأنباط
فاحتواها فتى يهين لها الما
ل ونادمت صالح بن علاط
ظل حولى قيانه عازفات
مثل آدم كوانس وعواط
ظفن بالكأس بين شرب كرام
مهدوا حر صالح الأنماط
ساعة ثم قال هن بـداد
بينكم غير سمعة الاختلاط

هو اذن ينادى أم عمرو ليخبرها بأنه شهد مجلسا ممتعا للهو
وسط غيد حسان قد ارتدين الثياب الشفافة البيضاء ، وقد نادى
فيه أناسا كراما منهم صالح بن علاط وسهر معهم حتى الصباح .
لقد أهانوا أموالهم في هذه الخمر المعتقدة الحمراء بعد أن افترشوا
البسط ودارت عليهم القيان الحسان — المشبهات للظباء —

بالكئوس وهن يغنين ويعزفن وأخيرا وهبهم هذا الغنى القيان
جميعا دون أن يكون قد اختلط عقله سكرًا أو خبلا .

وتتكرر هذه الصور في شعر حسان الجاهلى وكأنها ضرورة
من ضرورات النظم يلتفت فيها الشاعر لنفسه ، ويصدق في التعبير
عن دوائله ويحسن في تصوير ما يراه ، وهو في كل ذلك عابث
لاه ، يبحث عن اللذة ، ويطلب النشوة ، ويهين المال في سبيل هذا
كله ليحقق في نفسه صورة الفتى الجاهلى في إحدى صفاته
الأساسية .

ويخرج حسان بحكمة الحياة من هذه المنتديات ، فيعرف أن
لا قيمة لشيء ، لأن كل شيء الى زوال ، فلماذا التفكير والارهاق
وتعب النفس ، والانسان لن يكسب في حياته الا اللذة الحاضرة ،
فعليه اذن أن يطلبها في كل وقت ويبحث عنها كلما انتهى ذلك .
يقول :

وممسك بصداع الرأس من سكر
ناديته وهو مغلوب فقدانى
لما صحا وتراخى العيش قلت له
ان الحياة وان الموت مثلان
فاشرب من الخمر ما آتاك مشربه
واعلم بأن كل عيش صالح فان

٣ — الوصف : من الموضوعات التى عودنا الجاهليون أن
يصفوها في شعرهم — غير وصف الأطلال — وصف النوق
والخيل وأدوات الحرب ، ووصف المسالك وقطعها وما يقابل فيها

المرتحل من صعاب ومن وحش وجن ، كذلك عودنا الجاهليون وصف مظاهر الطبيعة من سحب وأمطار وسيول ثم أنواع النباتات الصحراوية بألوانها وعبيرها ومذاقها أيضا . وقد شغلت العvisية الجاهلية ومدح الملوك والأمراء حسان بن ثابت في جاهليته عن أن يلتفت لمثل هذه الموضوعات ويستغرق فيها كما يفعل غيره من الشعراء ، ولكن اذا عرض لها فانما يعرضها عرض المقلد المتتبع لأصول نظم الشعر وترتيب موضوعاته .

وربما كان من الصور الجميلة التي رسمها حسان لاحدى مظاهر الطبيعة هى وصفه للنجوم وهو ما سبق أن بيناه . وقد سبق شعراء آخرون حسان فى رسم مثل هذه الصورة وبنفس الألوان والأبعاد والدلالة غير أنه يختلف عن سبقه فى نوع التأثير اذ نراه فى بعض الأحيان يلجأ الى تلوين صورته بلون رومانسى حاد .

كذلك صورة أخرى عاشها حسان فى شعره وان كانت قليلة وهى وصفه للصيد ، والشعر الجاهلى ممتلىء بمثل هذه الصورة فهى عند امرئ القيس وأوس بن حجر ولييد وزهير وكعب وغيرهم .

وصورة حسان مرسومة رسما سريعا — على عادته — فى معظم صورته — فهى لا تقف لتفصل ، وانما غايتها أن ترسم خطأ واحدا له دلالات كثيرة ، ويمكننا أن نحيل القارئ الى مقطوعته التى تبدأ بقوله :

رب خرق أجزت ملعبه الجن معى صارم الحديد أباطى

الى أن يقول :

يوم رحنا وما يخاف خليلي من لسانى خيانة الانبساط
وسنجد فيها أن سرعته لا تتيح له التأمل أو التخيل ولا تيسر
له الوقت ليصور أحاسيسه المباشرة من خلال تفصيل جزئيات
الصورة . لذلك فقد شعره أهم خاصة نجدها عند نوابغ الجاهليين
وهى تلك النزعة الانسانية التى تنبض بها الأشكال الفنية
والموضوعات الحية فى هذا الشعر ، فحين نجد مثلاً صور أوس
وزهير وليد تنبض بالمشاعر الانسانية الجارفة فى قصص الصيد
والحيوان نجد صور حسان جافة تقريرية فى معظمها كأنما ضعفت
لديه قدرة الحس الانسانى الذى يربط بين مظاهر الوجود
ومكوناته وبين نفسه الشاعرة .

وإذا أتينا لوصف حسان للسحاب والمطر فسنجد له أبياتاً
يقول فيها ان صاحبتة بقيت فى منازلها صيفا حتى ظهر فى السماء
سحاب له رعد وازرام ثم اجتمع هذا السحاب بعضه الى بعض
واسودّ من امتلائه بالماء وأصبح قريباً من الأرض ، ثم اشتد برقه
وانهمر ماؤه ، واختلف صوته وأصبح كأصوات الابل التى تحن
الى أولادها . ولقد أوشك رعدده من شدته فى وادى العقيق أن
يهدم هضبة جماء فجرفت مسایل الماء التى كونها أشجار الشوك
أمامها ، ولما رأت صاحبتة وقومها ذلك تنادوا بليل وارتحلوا .
وهذه الصورة تذكرنا بأبيات كل من امرئ القيس وأوس
بن حجر فى وصف البرق والمطر ، ونشعر أن حسان استفاد من

الشاعرين ، واستطاع أن يرسم صورته معتمدا على خطوط
صورتي الشاعرين . يقول حسان :

أقامت به بالصيف حتى بدا لها
نشاط اذا هبت له الريح أرزما
فلما دنت أعضاده ودنا له
من الأرض دان جوزه فتحمما
تحن مطافيل الرباع خلالة
اذا استن في حافاته البرق أثجما
وكاد بأكناف العقيق وئيده
يحط من الجماء ركنا ملمما
فلما علا تربان وانهل ودقه
تداعى وألقى بركه وتهزما
وأصبح منه كل مدفع تلعة
يكب العضاة سيله ما تصرما
تنادوا بليل فاستقلت جموعهم
وعالين أنماط الدرقل المرقما

يمكننا أن نقول اذن ان صور حسان مشبعة بصور من
عاصروه كأوس وزهير ولييد أو من سبقوه كامرئ القيس ،
فالألوان والأصوات والحركة في صورته تراث منقول الى شعره ،
واذا كان قد تفوق أوس ولييد عليه في تفصيل الصورة وتركيبها
واكسابها الاحساس الذاتى والنزعة الانسانية وفاقه امرؤ القيس
في قدرته على نقل الواقع بتفاصيله وربطه بصور جزئية بسيطة

متلاحقة فقد استطاع حسان أن يفوق هؤلاء في أنه نجح في أن يربط هذه الموضوعات الوصفية بالموضوع الأصلي في القصيدة فيكسبها بذلك وحدة تنقص قصائد كثير من شعراء الجاهلية .
من هذا الفصل وبعد هذا العرض يمكننا أن نلخص الصفات العامة لشخصية حسان بن ثابت في إطارها الجاهلي .

* * *

وكما رأينا يمكننا أن نحدد هذه الصفات في ملامح ثلاث ، لها تأثيرها في تكوينه النفسي والمادى . وهى :

- ١ — ارتباطه الوظيفي بعصبية القبيلة .
- ٢ — ارتباطه الحيوى بمصادر الثروة في الامارات الشمالية .
- ٣ — ارتباطه الفنى نحو ذاته والتعبير عن فرديتها .

أما الارتباط الأول فقد فرضه وضعه وموهبته في مجتمعه القبلى لأن معارك القبيلة ومشاجراتها أساس من أسس تركيبها الاجتماعى ، وضرورة من ضرورات حياتها اليومية ، ولم يكن الشاعر بأقل من الفارس في أهمية وظيفته الاجتماعية في قبيلته ولا سيما اذا أثبت كفاءة في مناقضة الشعراء المنافسين ، وموهبة في التفوق عليهم فنيا ، وكان أكثر ما يهتم به الشاعر أن يلم بأخبار قومه وأخبار أعدائهم ، ثم أن يلم بأنساب الاثنين معا ليستطيع أن يبحث عن الأمجاد والمآثر ، وشرف النسب وبقاء الدم .

وقد نجح حسان في أن يقوم بواجب وظيفته ، وأن يحقق لقومه انتصارات اعلامية تشيد بالأمجاد وكل ما يمكن أن يفخر

به الخرج ، وفي نفس الوقت يغطي هزائمهم وكل ما يمكن أن يشين وضعهم الاجتماعي .

وقد أكسبت حسان هذه الوظيفة عنفا في شخصيته ، وتهورا في طبيعته وهما الصفتان اللتان تلزمان الشاعر القبلي حتى يستطيع أن يدافع عن عصبية القبيلة وأن يكافح في سبيل بقائها ، ولقد دفعه هذا العنف وذلك التهور الى أن يطلق امرأته عمرة بنت الصامت — وكان يحبها حبا شديدا — لأنها كانت قد عرضت بأخواله ثم ندم بعد ذلك وعبر عن هذا الندم مرات كثيرة في شعره . وسوف نجد أثر هاتين الصفتين أيضا عندما تتطور شخصيته في الاسلام .

وقد كان لسان حسان حادا وسخريته شديدة ، وكلا الصفتين تلزم أيضا وظيفته القبلية . جاء أن الحطيئة وقف على حسان وحسان ينشد من شعره فقال له حسان وهو لا يعرفه : كيف تسمع هذا الشعر يا أعرابي ؟ قال الحطيئة : لا أرى به بأسا ! فغضب حسان وقال : اسمعوا الى كلام الأعرابي ، ما كنيته ؟ قال : أبو مليكة . قال حسان : ما كنت أهون على منك حين كنيته بامرأة !

ويقول ساخرا في هجاء خصومه :

لا عيب بالقوم من طول ومن عظم

جسم البغال وأحلام العصافير

كما يقول في سخرية ضاحكة هاجيا قبيلة جذام :

لعمري أبي سمية ما أبالي أنب التيس أم نطقت جذام
إذا ما شاتهم ولدت تنادوا أجدى تحت شاتك أم غلام
وسوف نجد أن سخريته هذه وحدة لسانه سوف يستغلها
استغلالاً رائعاً في الإسلام عندما يقف مناقضا لشعراء المشركين .
ويظهر أن حسان شارك بسيفه أيضاً في حروب قومه كما شارك
بشعره ، وقد تسبب ذلك في قطع أكحل يده كما أشرنا من قبل ،
وقد جعله ذلك يحجم عن المشاركة في غزوات الرسول صلى الله
عليه وسلم فيما بعد .

كان حسان اذن وبهذه الصورة صحيفة الخزرج اليومية ،
وقد نجح في تسجيل ونشر ما يرفع من شأن قومه وما يشبع من
كبريائهم وغطرستهم القبلية .

وقد كان لدوره هذا أثر في نجاحه فيما بعد في احتلال مركز
شاعر المسلمين المنافع عن رسولهم بعد أن خبر هذا الدور وتدرج
على مشاقه ما يقرب من أربعين عاماً نظم فيها الشعر في جاهليته .
أما ارتباطه الحيوى بمصادر الثروة في الشمال فقد كان ذلك
طبيعياً من ناحيتين أولاًهما رغبته في التكسب لأن ماله في القبيلة
قليل على كثرة ما أعطاه قومه وكان يرى شعراء القبائل الأخرى
لا يقتصرون في هذا الوقت على أسهمهم في قبائلهم وإنما يلجأون
إلى الإمارات الشمالية ليزيدوا من ثرواتهم . أما الناحية الأخرى
فهى أنه عندما كان يلجأ إلى الغساسنة لم يكن كغيره من الشعراء
المادحين الذين يدبجون القصائد وهوامهم كله أن ينالوا المال
بقدر ما يبالغون في تصوير ممدوحهم وإنما كان يلجأ إلى ذوى

قرباه ، فاذا مدحهم فهذا فخر لنفسه ، واذا رفع من شأنهم فهذا
 تمجيد لقبيلته ، واذا أشاد بأسابهم ، فهذا تزكية لأصله اليمنى
 وهنا نجد مدائح حسان تختلف عن غيرها عند الشعراء الآخرين
 ففى كل مكرمة يضيفها للغسانين افتخر بها ، وكل فضيلة وصفهم
 بها هلال لها لأنها احدى فضائل قومه ، وهذا ما وضعناه عندما
 عرضنا قصيدته فى مدحهم التى منها :

سألت حسان من أخواله انما يسأل بالشئ الغمر
 قلت أخوالى بنو كعب اذا أسلم الأبطال عورات الدبر
 الى أن يقول :

منهم أصلى فمن يفخر به يعرف الناس لفخر المفتخر
 نحن أهل العز والمجد معا غير أنكاس ولا ميل عسر
 فسلوا عنا وعن أفعالنا كل قوم عندهم علم الخبر
 اذن امتزج المدح بالفخر عند حسان وبذلك اختلف حسان
 فى مدائحه عن غيره من الجاهليين الذين كانت قصائدهم يستغرقها
 المديح كله الا من مقدمة طللية أو غزلية أو وصف للطريق
 أو للراحلة .

لذلك أيضا نجد أن مديح حسان تسوده نزعة خطائية على
 خلاف طبيعة هذا الفن . فالنزعة الخطائية من شأن الفخر وليس
 المدح ، ولكن امتزاج الموضوعين عند الشاعر أشاع هذه اللهجة
 فيهما معا .

ونستطيع أن نعمم قليلا اذا قلنا ان مدائح حسان للغسانين
 استمرار لفخره القبلى ، وتعبير عن عصبيته اليمنية .

وقد كانت هذه العصبية اليمنية هى التى جعلت الخزرج والأوس معا عندما يتعرضون لخطر دائم من جيرانهم من اليهود يستعينون بالغساسنة الذين كانوا لا يتأخرون فى تلبية استغاثتهم كما تشهد بذلك الأحداث . فالغساسنة هم الذين ساعدوا القبيلتين على دخول يثرب فيها بعد أن كانت القبيلتان تنزلان فى أول الأمر فى خارجها ، ثم كان الغساسنة هم الذين ساعدوا القبيلتين على أن يفرضا سيطرتهما على المدينة وأن يزعزا من مركز اليهود فيها لذلك كان حسان يعتبر الغساسنة الدرع الواقى له ولقومه . وكانت زيارته السنوية لهم عنوانا للصلة الوثيقة التى تربطه بهم ، والتى يحرص على توطيد عراها هو وقييلته .

ولم نستطع أن نعرف اللهجة التى كان يمدح بها المناذرة ، فما وصل من شعره فى مدحهم نادر ولا يصور شيئا ، وإن كنا نحس بنبرة الفخر أيضا عندما أطلق له النعمان بن المنذر بعض أفراد قومه الذين كانوا فى أسره ، وكأن النعمان بذلك يريد أن يكسب جانبه ، ويرغب فى أن يضمه الى بلاطه ، وبذلك يثقف أعداءه الغساسنة سلاحا من أسلحتهم .

ولقد أتاحت زيارات حسان للشمال أن يطلع على مظاهر أكبر حضارتين موجودتين فى عهده : الرومانية والفارسية ، ولقد تقل بعض مظاهر هاتين الحضارتين فى شعره كما كان يراها متمثلتين فى الامارتين الخاضعتين لهما ، وكان لما رآه أثر فى اثراء صورته ، واكسابها ألوانا جديدة لم تكن تتح له أو لغيره وخاصة مجالس الخمر والغناء وحسناوات الرومان فمن الأوصاف الجديدة

حديثه عن الجبال التي تكسوها الثلوج عندما كان يمدح عمرو
ابن الحارث يقول :

من يغر الدهر أو يأمنه من قبيل بعد عمرو وحجر
ملكا جبل الثلج الى جانبي أيلة من عبد وحر
كذلك وصفه لحساء شاهدا في الشمال :

وحلفت لا أنسى حديثك ما ذكر الغوى لذاذة الخمر
ولأنت أحسن اذ برزت لنا يوم الخروج بساحة القصر
من درة أغلى الملوك بها مما ترب حائر البحر (١)
وأیضا وصفه لأنهار الشمال حينما تصفق مياهها فيقول :

يسقون من ورد البريص عليهم

بردى يصفق بالرحيق السلسل

وقد يكتسب شعر حسان شيئا من الرقة والليونة دون أن
يفقد متانة التركيب وجزالة اللفظ وذلك عندما يصف مجالس
الخمر وندمائها وحسنائنها فيعبث ويتدلل كأن يقول :
ان التي ناولتني فرددتها

قتلت — قتلت — فهاتها لم تقتل

نعم ! انه يدعو على الساقى عابثا أن يقتل كما قتل الخمر
بمزجها بالماء لأنه يريد لها صافية معتقة ، وهى رقة لم تكن ميسرة
لغيره ممن لم يشهدوا ما رآه .

وسوف نجد أثر تمرس حسان بفن المدح في مدحه للنبي

(١) قوله ترب حائر البحر يعنى الدرة التى يربها الصدف
فى قاع البحر . والحائر : مجتمع الماء .

صلى الله عليه وسلم وللمسلمين عندما يدخل في دين الله ، ويصبح شاعر الرسول عليه السلام .

بقيت النقطة الأخيرة في هذا الموضوع وهى ارتباط حسان الفنى بذاته وكيف استطاع أن يعبر عن فرديته بكل كوامنها ، وأن يحقق لها انطلاقتها من ربة هذا الاتجاه الغيرى في فخره القبلى ومدحه الغسانى .

قد يعترض معترض ويقول ان فخر حسان القبلى تعبير عن ذاته ، ومدحه للغسانة مواصلة في التعبير عن هذه الذات ، ونحن لا نكر ذلك ، فقد بينا أن ذاته امتزجت في هذين الموضوعين وأصبح تعبيره عن قبيلته تعبيراً عن نفسه . ومدحه للغسانة تمجيذا لهذه النفس ، ولكننى أريد هنا أن أوضح مدى ما استطاع حسان أن يثيره من كوامن نفسه دون الاعتماد على هذين الموضوعين ، وكيف استطاع أن يفعل ذلك لأن في تفسيرنا لهذا اضافة لعنصر من عناصر هذه الشخصية التى نعرض لها بالتحليل والدراسة .

لقد وضحت أن المقدمة الطللية الغزلية ثم الوصف هما المثيران اللذان يمكن أن يفجرا في الشاعر القديم مكنون انفعالاته ، وأن يوضحا رأيه في الناس والحياة . ومثل كل شاعر ، وجدنا أن التراث الفنى السابق عليه قد أمدّه بتقاليد يخضع لها دون ارادته ، ويحمل فنه بها دون أن يكون له دخل في ذلك ، لأننا نلمح حدائق امرئ القيس وأوس بن حجر وزهير وليبد وغيرهم من الشعراء تلقى ظلالها على شعره وتشيع عبرها في أريجه .

وإذا كانت زوجتنا حسان عمرة وشعثاء قد حجبتا عنا صور
النساء الأخريات اللائى قد يكن قد التقين بحسان وأثرن في
نفسه وشعره فإن هاتين المرأتين استطاعتا أن تشغلا حسان بسبب
جبه لهما واتصاله عنهما ، وأن يشغلا أيضا معظم قصائده ،
يشهما فيها نشوة الحب والجوى ، ويعبر فيها أيضا عن ألم الفراق
والهجران ، فما هو ما زال يرجو لقاء شعثاء ولو بعد لأى ، ويعدها
بأن يهدى لها كل عام قصيدة يذكرها فيها :

تلاق بعيد واختلاف من النوى

تلاقيكما حتى توافى موسما

سأهدى لها فى كل عام قصيدة

وأقعد مكفيا يشرب مكرما

أما اذا بحثنا عن فتاة أخرى غير زوجته يكون قد ذكرها فى
شعره ، فسوف نجد واحدة تسمى لىلى ، قد نأت بديارها ،
وهمت بقطع ما بينه وبينها من حب ، غير أن حسان حريص على
جبه ، متمسك به ، فهو باق على العهد ، محافظ عليه ، وإذا كان
الواشون قد حاولوا أن يوقعوا بين الاثنين فقد أخطأوا فيما
تقولوا به وما أضافوه اليه ، ويكفى أن تسأل فتاته عنه الناس
لتعلم حقيقته ، وتفهم مخبره . يقول :

فان تك لىلى قد نأتك ديارها

وضنت بحاجات الفؤاد المقيم

وهمت بصرم الجبل بعد وصاله

وأصغت لقول الكاشح المتزعم

فما جبلنا بالثر عندي ولا الذي
 يغيره نأى ولو لم تكلم
 وما حبها لو وكلتني بوصله
 ولو صرم الخـلان بالمتصرم
 لعمر أييك الخير ما ضاع سرهم
 لدى فتجزيني بعادا وتصرمى
 ولا ضقت ذرعا بالهوى اذ ضمته
 ولا كظ صدرى بالحديث المكتم
 ولا كان مما كان مما تقولوا
 على وثثوا غير ظن مرجم (١)
 فان كنت لما تخبريني فسائلنى
 ذوى العلم عنا كى تنبى فتعلمى

واذا كان وصف الطبيعة — الحية والجامدة — يتيح للشاعر
 أن يعكس نظره الى الحياة على هذا الموضوع ، أو يسمح
 لطبيعته الخلاقة أن تتمثل الجمال المطلق من خلال جزئيات
 الكون ، فان الشاعر الجاهلى ما كان بمادية ارتباطه بالطبيعة ،
 وحسية تصويره للأشياء بمستطيع أن يطلق تذوقه من قيود النظر
 فى جزئيات الطبيعة والتمتع بجمالها النسبى الى آفاق التجريد
 المعبر عن فلسفات الحق والخير والجمال ، لذلك تحددت النزعة
 الانسانية عند الشعراء الجاهليين بتلك الأطر التى تمنع من

(١) نشوا : نشروا ، أشاعوا .

الانطلاق والشمول ، وأعنى بها قيود الحس المباشر والمادية القريبة منه

ويختلف الجاهليون فى رؤاهم الشعرية ومصادرها ، فيعتمد أكثرهم على تمثل الحياة اليومية وما توحى به عناصرها من دلالات عامة ، فاتساع المرعى وكثرة الكلا يربط عندهم بخصوبة الحياة واستمراء السعادة ، وجفاف الأرض ونضوب الآبار يدفعهم الى التعبير عن الهجر والرحيل وما يخلفانه من أسى ولوعة وضياع ، أما القليل فيقف عند مفارقات الحياة ليبين موقف الانسان منها . وقد نجح حسان فى أن يعرف من المصدرين ، فتنوعت رؤاه ، وتحققت له بذلك نعمة الشاعر الغنائى الأصيل . وكان حسان قادراً على تحميل لغته رؤاه الشعرية ، فلم ينب به لفظ ، ولم يتعثر عنده تعبير . كذلك كانت موسيقاه سليمة متفقة فى عنفها أو رقتها مع الموضوع الذى ينظم فيه . ذلك حسان فى الجاهلية : قبل "مادح" فنان !

القسم الثاني
حسان في الإسلام

الفصل الأول

يثرب والثورة الفكرية البجدية

استمرت الأحوال الاجتماعية يثرب مضطربة بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تنشب بين قبائل الأوس والخزرج أو بينها وبين قبائل اليهود ، أو بين أحداها وقبائل أخرى من خارج المدينة ، ولم يكن اليثربي يأمن على نفسه أو أسرته أو ماله إذا خرج من حصنه ، فخمد النشاط الاجتماعي والاقتصادي في المدينة ونزل الضيق بالناس ، وأصبحوا يتطلعون الى معجزة يمكن أن ترجع الحياة المزدهرة الى المدينة ، وأن تجعلها تنافس مرة أخرى مكة التي فاقتها استقرارا ورواجا بسبب استتباب الأمن بها وازدهار النشاط الاقتصادي فيها .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ، ولاقى هو والمسلمون الأوائل ضغطا شديدا من المشركين ، وعذابا قاتلا من قريش التي وقفت ضد هذا الدين الجديد . ولم تكن يثرب تبعد عن مكة كثيرا ، كما كانت للرسول علاقة قوية تربطه بها قبل

البعثة . ففيها أحوال جده عليه السلام ^(١) ، وكانت أمه آمنة بنت وهب رضى الله عنها الزوج الوفية — تحج مع عبد المطلب الى يثرب لزيارة قبر زوجها — والد الرسول صلى الله عليه وسلم ^(٢) — وقد صحبها الرسول الى هذه المدينة وهو فى السادسة من عمره ، فزار معها قبر أبيه ، ثم قفلا عائدين ، وفى الطريق مرضت آمنة رضى الله عنها وماتت ودفنت بالأبواء فى منتصف الطريق بين يثرب ومكة . فلا عجب أن تكون هجرة الرسول الى هذه المدينة التى يرتبط بها بذكرياته ومشاعره وذوى قرباه .

وكانت هناك عوامل دفعت سكان يثرب الى أن يستبقوا غيرهم فى الدخول فى دين الله أفواجا ، وأول هذه العوامل مجاورتهم لليهود أصحاب الديانة السماوية ، العارفين بأخبار الرسالات السابقة ، وكان اليهود يتحدثون دائما عن رسول يظهر ويشر بدين يشبه دينهم ، وكانوا يؤملون أن يكون هذا الرسول من بينهم ، لذلك كانت يثرب بسكانها من العرب واليهود أرضا خصبة للدين الجديد ، وبيئة معدة اعدادا روحيا لتقبل الرسالات السماوية .

غير أنه ليس من السهل أن يكون هذا العامل هو الذى دفع أهل يثرب الى الدخول فى الاسلام فحسب وخاصة أن انتشار

(١) أم عبد المطلب بن هاشم : سلمى بنت عمرو من بنى النجار من الخزرج .

(٢) كان والد الرسول عليه السلام قد مرض فى الطريق أثناء رجوعه من تجارة لقريش بالشام ثم توفى بالمدينة ودفن بها .

الاسلام فى ىثرب لم يلق مقاومة تذكر بجانب المقاومة التى لاقاها فى مكة والتى لم يتم دخول كل أهلها فى دين الله الا بعد فتحها .

اذن لا شك أن هناك عوامل أخرى ساعدت على سرعة انتشار الدين الجديد . ويمكن أن نجد هذه العوامل فى الظروف الاجتماعية التى كانت تعيش فيها هذه المدينة قبل الاسلام ويُفسرها الالتقاء الذى تم بين الرسول عليه السلام وبين وفود هذه المدينة فى العقبة الأولى والعقبة الثانية .

لقد عرفنا فى القسم الأول من هذا الكتاب الصراع القبلى العنيف الذى كان يضطرم أوراها بصورة دائمة فى قبائل ىثرب والذى شارك فيه شعراء هذه القبائل ، وكيف كانت هذه القبائل تلتمس الحلف فى قبائل العرب الأخرى طلبا للنصرة منها والعون ، فمنها من كان يستجيب لهم ومنها من كان يرفض أن يزج بنفسه فى حرب لا يعلم تتيجتها . وكان مندوبو قبائل الأوس والخزرج يخرجون الى القبائل للبحث عن يقبل التحالف معهم ونصرتهم . ونجد فى سيرة ابن هشام أول احتكاك بين هؤلاء المندوبين وبين الرسول صلى الله عليه وسلم . فقد حدث قبل بيعة العقبة الأولى أن قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل — من الأوس — فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قبيلة الخزرج ، وسمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثأهم ودعاهم الى الاسلام وتلا عليهم القرآن . فقال اياس وكان غلاما حدثا : أى قومى ! هذا والله خير مما جئتم له . فرمى أبو الحيسر أنس بن رافع وجه اياس

بعضة من تراب وقال له : دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا .
فصمت اياس ورحلوا الى المدينة ثم كانت وقعة بعث بين الأوس
والخزرج (١) .

كان هذا أول لقاء بين أهل المدينة والرسول صلى الله عليه
وسلم ، وكان الرسول عندئذ لم يشتهر أمره ولم تظهر قوته ،
ولكن سرعان ما شاع أمره في القبائل وقوى جانبه بكثرة أتباعه
وصمود أنصاره . ثم التقى مرة أخرى بوفد من أهل يثرب وهنا
وجد أهل يثرب يجدون فيه الرجل الذي يستطيع أن يصنع
المعجزة ويشيع الأمن والسلام في مدينتهم المتطاحنة .

كان خبر هذا اللقاء عندما خرج رسول الله صلى الله عليه
وسلم في موسم من مواسم العرب — كما كان يفعل دائما —
ليعرض نفسه على قبائل العرب ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا
من الخزرج فسألهم صلى الله عليه وسلم : من أنتم ؟ قالوا : نفر
من الخزرج ، قال : أمن موالي يهود ؟ قالوا : نعم ، قال :
أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه صلى الله عليه
وسلم وعرض عليهم الاسلام . وعندئذ تذكروا قول اليهود لهم
ان نبيا قد حان وقت بعثه وقد أطل زمانه وسيبتعونه ليقتلوه
كما قتلت عاد وارم . فلما كلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض : يا قوم ، تعلموا والله انه
للنبي الذي توعدكم به يهود . فلا تسبقنكم اليه . فأجابوه عليه

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٦٩ . ويقال ان اياس مات بعد ذلك
مسلمًا .

السلام فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، وقالوا : انا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فنسندم عليهم ، فدعوههم الى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجيناك اليه من هذا الدين ، فان يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ^(١) . ثم قدموا المدينة وذكروا أمر هذا النبى الجديد ودعوههم الى الايمان به حتى اذا كان العام القادم وفى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلقوه بالعقبة فكانت البيعة الأولى .

تلك هى نظرة الأوس والخزرج الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر ، فهم يرجون أن يجمع الله شملهم به ، وتخدم الفتنة الناشئة بينهم بقيادته ، وهو الذى يدعوههم الى الأخوة والسلام ، ويستطيع أن يملأ الفراغ الذى كان يشعر به سكان يثرب فى الرئاسة غير المتحيزة ، وفى العقيدة التى تقف ضد عقيدة اليهود ، وفى التنظيم الداخلى لمدينتهم بعد أن سادها الاضطراب ، وعمها الشعور بفقدان الأمن اليومى ، اذ لم يعد الرجل منهم يدرى أيثار اليوم منه أم من غيره .

يقول فلهوزن ان الأحوال السياسية فى المدينة كانت مواتية للرسول صلى الله عليه وسلم ففى مكة كان يسود الهدوء والنظام ، وكانت العوامل التى تربط بين الجماعة تؤدى وظيفتها على نحو مرض ، ولذلك أحس المكيون بأن الشئ الجديد الذى أراد

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٧١ .

النبي أن يدخله في مكة يهدد حياتهم ويكدر صفوها فعملوا على القضاء عليه . أما في المدينة فقد انقسمت الجماعة فيها الى معسكرين متعادين هما الأوس والخزرج ، فكان القتل والسفك شيئا مألوفا ، ولم يكن أحد يجروء على الخروج من حيه دون أن يعرض نفسه للخطر . وسادت المدينة حال من قلة الأمن جعلت الحياة فيها غير ممكنة ، فكانت الحاجة ماسة الى رجل يدخل الفرجة المفتوحة بين الفريقين ويقضى على الفوضى ، ولم يكن هناك بد من أن يكون رجلا محايدا لا تشوبه شائبة التورط في المنافسات الداخلية بين القبيلتين . لذلك جاء النبي من مكة في الوقت المناسب وكأنما نودى لذلك . ولما كانت لحمة الدم قد فشلت في أن تكون رباطا يؤلف بين الناس فقد كان هناك أمل قوى في أن تحقق ذلك العقيدة (١) .

ونستطيع أن نلمح عاملين آخرين في تقبل يثرب للدين الجديد أولهما يتضح عن قول أحد الخزرج الذين قابلهم الرسول : يا قوم والله انه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم اليه ، فقد كان اليهود قد رسّخوا في أذهانهم أن النبي آت لا ريب وسوف ينضمون اليه لينتقموا من كلا القبيلتين .

خاف اذن عرب يثرب أن يجد اليهود في الرسول صلى الله عليه وسلم حليفا كما كانوا يقولون فيزداد اليهود بذلك منعة ، ويزداد موقف الأوس والخزرج ضعفا لذلك وجدوا أن من مصلحتهم أن يسبقوا اليهود في أن ينضموا الى صفوف رسول

(١) قيام الدولة العربية لقلهوزن ٦ - ٧ .

الله صلى الله عليه وسلم وأن يدخلوا في دينه قبل غيرهم .
وما كانوا يعلمون أن اليهود لن يؤمنوا أبدا بدعوته صلى الله
عليه وسلم رغم علمهم بنبوته وتبشيرهم بها وفيهم جاء قوله
تعالى « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من
قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا
به فلعنة الله على الكافرين » (١) .

أما العامل الآخر فيتضح من دراسة اثبات أسماء وفود يثرب
قبل العقبة الأولى ثم في العقبة الأولى والعقبة الثانية .

كان الوفد الذي قابل الرسول صلى الله عليه وسلم قبل بيعة
العقبة الأولى مكونا من ستة نفر جميعهم من الخزرج (٢) ثم
كانت العقبة الأولى ووفد فيها على النبي اثنا عشر رجلا عشرة من
الخزرج واثنان من الأوس ، أما في العقبة الثانية فسنجد أن من
وفد فيها اثنان وستون رجلا من الخزرج وأحد عشر رجلا من
الأوس ، كذلك وفدت امرأتان من الخزرج . وكان اختيار النقباء
بعد العقبة الأولى تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهنا
نلاحظ رجحان كفة الخزرج في السبق الى الاسلام واهتمامها
بأمره ، ويمكن أن نرجع ذلك الى سببين أولهما خروجها منهزمة
من حرب بعث فكان هذا دافعا لها أن تبحث عن مجال جديد تسد
به رمق الهزيمة ، ورغبة في الوصول الى عنصر آخر من خارج المدينة
يهبها القوة والمنعة بعد أن تكاتف اليهود والأوس ضدها في حرب

(١) سورة البقرة .

(٢) سنعتمد في هذه الاحصاءات على سيرة ابن هشام .

بعث ، أما السبب الآخر فقد كانت تتخيل أنها سوف تجد في رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيرا موثوقا به فهو ليس بغريب عليها لأن أحواله منها ونسبه في بنى النجار مرتبط بأقوى بطونها . وإذا كانت هذه العوامل وغيرها قد ساعدت في انتشار الاسلام في يثرب في أول الأمر فلا شك أننا نوقن بأن هذه العوامل اختفت بعد ذلك وأصبح هذا الدين الجديد هو الذى يربط القبيلتين الكبيرتين وهو الذى يدفعها لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجعلها تتسابق في الاستشهاد في سبيل نشره والحفاظ عليه .

كانت مدينة يثرب اذن مفتوحة للرسول صلى الله عليه وسلم ، فانتشر فيها الاسلام بسرعة بل وبأسرع من أن يتيح لليهود فرصة تدمير المؤامرات لعرقلة اكتساحه . وقام مصعب بن عمير الذى أوفده الرسول صلى الله عليه وسلم الى أهلها ليقارئهم القرآن ، ويفقههم في الدين بمهمته خير قيام ، وأخذت الهجرة تتحول من الحبشة الى مدينة الرسول ، وهو الاسم الجديد ليثرب ، وأخذ المجتمع في هذه المدينة يتغير تغيرا جوهريا ، وتتحدد له معالم حياة جديدة تختلف اختلافا تاما وعظيما عن معالمه في الجاهلية .

ان أول تغيير حدث في اسم يثرب ، لأن التشريب في اللغة هو التعبير والتخليط ومن ثم أصبح اسمها الجديد مدينة الرسول ، ولم يكن هذا التغيير ظاهريا فقط ، وانما شملها من الجذور ، فان المؤاخاة التى حققها الرسول بين المهاجرين وأهل المدينة هى أهم

ما أسس عليه الرسول دولته الجديدة ، وأروع عمل قام به الاسلام في عهده ، كما أن هذه المؤاخاة هي أعظم دليل على قدرة الرسول في تغيير النفسية البشرية من أسوأ طبيعة لها الى أجمل صورة يمكن أن تكون عليها ، لذلك لم يعد الرسول يفرق بين القبيلتين تفريقا قريبا ، وانما أسماهم جميعا اسما واحدا هو الأنصار .

ولقد تغير نتيجة لهذا ميزان القوى في المدينة ، كانت القوة والسيادة لليهود بعد حرب بعاث فأصبحت للأنصار بعد الهجرة وبعد دخول القبيلتين الكبيرتين في الاسلام وكانت الحياة قبل الاسلام تسير على قوانين العرف والتقاليد والحق للقوة فأصبحت بعد الاسلام تسير على قوانين الشريعة الاسلامية والحق لصاحب الحق .

خدمت اذن نيران الحروب القبلية بين القبيلتين في مدينة الرسول ، ولم يعد الشعراء يجدون موضوعا آخر ينظمون فيه ويعبرون عن ذواتهم من خلاله كما كانوا يفعلون في الجاهلية ، غير أن قريشا سرعان ما خلقت لهم الموضوع الجديد وذلك عندما أخذ شعراؤها في هجاء الرسول والمسلمين .

ولم يسكت الأنصار ، وطلبوا الاذن من الرسول في الرد عليهم ، فأذن لهم واذا بالأسنة التي حبست مدة في حلقها تخرج لترد على شعراء المشركين ، ونشبت بذلك المعركة الفنية التي استمرت نيرانها مشتعلة حتى يوم فتح مكة ودخول العرب جميعا

فى دين الله أفواجا وكان حسان بن ثابت الفارس المعلم فى هذه
المعركة الفنية .

وقد وضع الرسول للمسلمين واليهود فى يثرب عقب هجرته
نظاما جديدا يضمن به الاستقرار والأمن فى المجتمع الجديد .
وقد حفظت لنا الأيام كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذى
يوضح هذا النظام . يقول عليه السلام فى أوله : بسم الله الرحمن
الرحيم ، هذا كتاب محمد صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين
والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد
مهم (١) .

وأهم ما يظهر فيه أن أهل المدينة أصبحوا منذ ذلك الحين أمة
واحدة ، غير أن الأمة فى هذا الكتاب لها صبغة دينية . يقول
فلهوزن (٢) : هى جماعة الله التى ترعى مبادئ الاسلام ومبادئ
حماية الجار ونصرة المظلوم ، والله تعالى هو الذى يشرف عليها ،
ومحمد عليه السلام يشرف عليها باسمه ، والايمان هو رباط
الاتحاد ، والمؤمنون هم مثلو معناه ، وهم أول من يجب عليهم
الوفاء للاتحاد ، وفى الوقت نفسه أول من يتمتعون بالحقوق
التى يخولها ، والأمة لا تشتمل على المؤمنين بل هى أيضا تتألف
من كل من يتبعهم ويحارب معهم ، أى من كل أهل المدينة ، والأمة
لها منطقة من الأرض اجمالية ، فكل جوف المدينة ينبغى أن
يكون حرما وأرض سلام لا يعتدى فيها أحد على أحد . وكان

(١) أنظر نص الكتاب فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ - ١٤٩ .

(٢) تاريخ الدولة العربية ١٢ - ١٣ .

بين الأنصار في أول عهدهم قوم مشركون ولكنهم لم يستبعدوا من الأمة بل أدمجوا فيها بنص صريح ، وكذلك شملت الأمة اليهود وان كانوا لا ينتمون اليها ائتماء وثيقا كالمهاجرين والأنصار ، كما أنه لا تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق ، وعلى هذا فلم تكن درجة الانتماء للأمة واحدة بحيث بقى ما يشبه التمايز العربى القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل ، ومما له نفس الأهمية أن الأمة رغم أنها كانت تشمل المشركين واليهود فانها لم تكن تتكون من أفراد وانما كانت تتكون من جماعات فالفرد لا ينتمى الى الأمة الا من طريق العشرة والقبيلة . فقد جاء فى هذا الكتاب أن تبقى القبائل كما هى وأن تدخل فى الأمة على صورتها .

أما فيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتها فقد بقيت على القبائل النفقات التى ليست بذات صبغة معينة وخصوصا دفع الدية وفداء الأسرى ، ذلك لأنه لم تكن قد وجدت بعد خزانة للأمة كذلك بقى للعشيرة والقبيلة الولاء ، فلا يسوغ لأحد أن يدعو مولى الى مخالفة مولاه ، بل لقد بقى حق الاجارة ولم يقيد بأية قيود ، فلكل فرد الحق فى أن يجبر شخصا عربيا ما عدا مشركى قريش وهو بذلك يلزم الجماعة كلها .

وهكذا كان على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر لأن غاية الأمة منع الحرب فى الداخل ، فاذا قام نزاع وجب أن يعرض على ولى الأمر . وقد نفذ مبدأ العقاب تنفيذا صارما ،

وانكسرت شريعة رابطة الدم ، وبذلك تفادت المدينة الغارات القديمة واستعدت لمحاربة العدوان الخارجى . وقد نص الكتاب على اتحاد القبائل على رد العدوان من الخارج ، وعلى أن ينصر المؤمنون بعضهم بعضا ، وأن أعداء الأمة الظاهرين هم قريش ، لذلك تكاتف المؤمنون ، وقامت الأمة بواجبها فى صد غارات قريش والخروج فى غزواتها المشهورة . وقد ساعدت هذه الغزوات على توطيد أركان الأمة من الداخل قبل أن تساعد على صد العدوان الخارجى ونشر الاسلام فى ربوع الجزيرة ، فقد رفعت هذه الغزوات الروح المعنوية للمؤمنين فى يثرب وخاصة بعد تلك الانتصارات المتتالية فى هذه الحروب ، غير أن أهم من هذا كله أن هذه الحرب كشفت للمسلمين النقاب عن أوجه المنافقين من عرب يثرب وحقد اليهود على الرسول وأتباعه — الذى كانوا يضمرونه له ويتحينون الفرصة للقضاء عليه وعلى هذا الدين الجديد ، بل واشعال الفتنة مرة أخرى بين أنصاره من الأوس والخزرج والمهاجرين . ولذلك وتحت ظروف الحرب لم يعد يسمح الرسول للمشركين بأن يبقوا داخل المدينة وهم على شركهم ، فاعتنقوا الاسلام ، غير أن موقف اليهود من الرسول والاسلام كان أسوأ من موقف المنافقين لهما .

لقد فوجئ اليهود بانتصارات المسلمين الباهرة ، ووجدوا أن مكائهم فى المدينة لم تعد كما كانت عليها قبل الهجرة ، وكانت المؤاخاة بين الأوس والخزرج ضربة قاتلة لهم ، اذ لم تعد هناك فرصة لبذر بذور الشقاق والفتنة بينهما كما كان يحدث من

قبل ، لذلك أخذوا يرمون الأنصار بقوارص الكلم ويفتنونهم في دينهم ويجادلون الرسول مجادلة المستهزئ المضر للعداوة والحق ، فنزل الوحي يكشف أمرهم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » (١) وأخذ القرآن ينصح المؤمنين بأن يتعدوا عنهم وأن يتجنبوهم . « وقد نزل عليكم أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » .

واشتد حقد اليهود على المسلمين وخاصة بعد أن أسلم أحد أحبارهم الكبار وهو عبد الله بن سلام وكان قد اتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم هو وأهل بيته وأسلموا جميعا .

أخذ اليهود يدسون للمسلمين ، يشاركهم في ذلك بعض المنافقين ، وكانوا يسألون الرسول بقصد احراجه كأن يقولوا : اذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ وكان عليه السلام يجيبهم بقوله تعالى : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

وحدث أن شابا يهوديا مر بجماعة من المسلمين من الأوس والخزرج فأراد أن يوقع بينهم الفتنة فذكرهم بيوم بعث الذي كان قد انتصر فيه الأوس على الخزرج . فقام الأوسيون يفخرون على الخزرجيين وكاد ينشب بينهم القتال لولا أن خرج الرسول إليهم فذكرهم بما ألف الاسلام بين قلوبهم ، وبما ساوى الدين

(١) المائدة ٨٢ .

بينهم في الدنيا والآخرة . ففطنوا الى فتنة اليهودى وعانق بعضهم بعضا ، واستغفروا الله جميعا .

واشتد الجدل بين الرسول عليه السلام وبين اليهود ، فنزل الوحي الكريم يرد عليهم انكارهم ما في كتبهم ، ويلعنهم لكفرهم وانكارهم : « ولقد آتينا موسى الكتاب وبقينا من بعده بالرسول وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » .

ولم يقنع اليهود بمحاولتهم لبث الفتنة بين الأوس والخزرج وبين المهاجرين والأنصار بل أرادوا أن يفتنوا الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم حينما قالوا له : انك قد عرفت أمرنا ومنزلتنا ، وانا ان اتبعناك اتبعك اليهود ولم يخالفونا ، وان بيننا وبين بعض قومنا خصومة فنحتكم اليك فتقضى لنا فتبتعك ونؤمن بك ، فنزل فيهم قوله تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يغنون ؛ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (١) .

(١) المائدة ٤٩ .

وفكر اليهود مرة أخرى كيف يمكرون به عليه السلام ،
فأروا أن يقنعوه بالجلء عن المدينة وذلك بأن يزور بيت المقدس
ويتخذ من هذه المدينة مقرا له مثل كل الأنبياء وأن يجعل يثرب
وسطا في هجرته بين مكة وبين بيت المقدس . وفطن النبي عليه
السلام أنهم يمكرون به .

وأوحى الله اليه عندئذ بأن يجعل قبلته الى المسجد الحرام
بيت ابراهيم واسماعيل بعد أن كانت القبلة حتى هذا الوقت
وعلى رأس سبعة عشر شهرا من مقامه بالمدينة تجاه المسجد
الأقصى . « قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة
ترضاها . فولَّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولتوا
وجوهكم شطره » (١) .

وينكر اليهود على الرسول ما فعل وحاولوا ارجاعه الى قبلته
الأولى فينزل الوحي الكريم : « سيقول السفهاء من الناس
ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب
يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة
وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم
شهيدا . وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع
الرسول ممن ينقلب على عقبيه . وان كانت لكبيرة الا على الذين
هدى الله » (٢) .

وأثناء كل هذا الجدل والصراع الفكرى الدائر فى المدينة

(١) البقرة ١٤٤ .

(٢) البقرة ١٤٢ .

يفد وفد من نصارى نجران ، ولعل هذا الوفد انما جاء الى مدينة النبی حين علم بما بينه وبين اليهود من خلاف طمعا في أن يزيد هذا الخلاف شدة حتى يبلغ العداوة ، فيريح النصرانية المتاخمة في الشام وفي اليمن من دسائس اليهود وعدوان العرب ^(١) وتجتمع الأديان الكتابية الثلاثة وتقوم ملحمة كلامية عنيفة بين اليهودية والمسيحية والاسلام ، فأما اليهود فينكرون رسالة عيسى ومحمد عليهما السلام ويزعمون أن عزيرا بن الله وأما النصارى فيؤمنون بالتثليث وألوهية عيسى ، وأما محمد عليه السلام فيدعو الى توحيد الله خالق الكون وباعث الحياة من الأذل الى الأبد وكان اليهود والنصارى يسألونه عن يؤمن بهم من الرسل فيقول « قل آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبیون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » ^(٢) .

أى ثورة فكرية حدثت في يثرب ، تلك المدينة التي كانت تقتات بوقود القتال ، وبمرارة الأحقاد ، وبسم العصبیات . انها لم تعد تلك المدينة الضائعة في جزيرة العرب ، تصدر أخبار الفتن ، وتقذف بشرارات الحريق ، وانما أصبحت منارا فكريا يشع ضوء الحقيقة في ربوع الجزيرة العربية ، وينير مسالك العقل

(١) حياة محمد . محمد حسنين هيكل ٢٠٢ .

(٢) آل عمران ٨٤ .

ليخطو الانسان نحو مصدر النبوغ ، ويهدى شغف القلب التائه شاطيء الأمن واليقين .

وكما رأينا لقد صاحبت هذه الثورة الفكرية ثورة اجتماعية قامت أساسا على الرغبة في توطيد دعائم الأمة الاسلامية الجديدة ، واخماد ضرام العصبيات القبلية .

غير أن اليهود لم يحترموا عهودهم ومواثيقهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصبحوا في هذه المدينة بل وفي هذه الأمة الجديدة مصدر الخطر ، ومثار الفتنة .

وقد استطاعت الدولة الاسلامية بزعامة الرسول العربي أن تستأصل شأفتهم — وتطردهم خارج هذا المجتمع الجديد وقد تم ذلك على ثلاثة مراحل .

لقد تمت المرحلة الأولى بطرد قبيلة بنى قينقاع . فقد كانت اليهود منذ انتصار المسلمين في غزوة بدر تتغامز وتآتمر وتحقر من شأن هذا الانتصار ، وتضمّر الشر والخديعة خاصة بعد مقتل كعب بن الأشرف ، ثم حدث أن قدمت امرأة من العرب سوق بنى قينقاع ومعها حلية وجلست الى صائغ منهم بها ، فأرادوا أن تكشف عن وجهها فرفضت ، فجاء يهودى من خلفها وأثبت دون أن تدرى طرف ثوبها بشوكة الى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله ، فشدت بنو قينقاع على المسلم وقتلوه ، وقام النزاع بين المسلمين واليهود ، وطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود أن يكفوا شرهم عن المسلمين وأن يحفظوا المواعدة أو ينزل بهم

ما نزل بقریش فی بدر ، فاستخفوا بوعيدہ صلى الله عليه وسلم وقالوا له : لا یغیرنک یا محمد أنك لقییت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . انا والله لئن حاربناک لتعلمن أنا نحن الناس » .

ولم یجد الرسول والمسلمون بدا من مقاتلتهم ، فحاصروا بنی قینقاع فی دورهم خمسة عشر یوما متتابعة لا یدخل الیهم انسان بطعام ولا یمخرج منهم أحد لحاجة له ، ولم یبق لهم الا أن ینزلوا علی حکم الرسول فیهم . فلما سلموا قرر الرسول بعد استشارة أصحابه قتلهم جمیعا . غیر أن عبد الله بن أبی بن سلول — وكان حلیفا للیهود وحلیفا للمسلمین — طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن یحسن فیهم . وكان ما یزال ذا سلطان فی المشرکین من الأوس والخزرج . ورأى الرسول أن یسدى هذه الید لعبد الله وللمشرکین موالی الیهود حتی یصبحوا مدینین لاحسانه ورحمته ، فأمر أن تجلو بنو قینقاع عن المدینة تارکین وراءهم سلاحهم وأموالهم ، فخرجوا حتی بلغوا وادی القرى فأقاموا فیہ زمنا ، ثم اتجهوا صوب الشمال حتی بلغوا أذرعات علی حدود الشام وأقاموا بها .

خلت المدینة من الیهود اذن بهذه الطریقة ، فقد كان سائر الیهود المنتسبین للمدینة بعیدين عنها بخیر وأم القرى ، وكان هذا هو أول تطهیر للمدینة وما حولها من عناصر الفتنه وبذور الحقد . حتی یمکن إقامة المجتمع الاسلامی فی بیئة صالحة ، وتأسيس الأمة الاسلامیة فی جو قى .

وتمت المرحلة الثانية من اجلاء اليهود عن المدينة وضواحيها باجلاء بنى النضير ، فقد حدث أن طمعت اليهود فى الرسول وفى المسلمين بعد هزيمة أحد وبعد ما أصاب المسلمين فى يوم الرجيع من أسر وقتل بسبب خيانة هذيل للرجال الستة الذين وفدوا عليهم لتعليمهم الكتاب وتققيهم فى الدين ثم ما أصاب المسلمين أيضا يوم بئر معونة بسبب اعتداء عامر بن الطفيل وقومه على من وفد من المسلمين الى نجد .

وجد اذن اليهود فى هذه الأحداث ما أضعف فى نفوسهم هيبه الرسول صلى الله عليه وسلم وهيبه أصحابه ، وفكر الرسول ، فرأى أن اليهود يتربصون به الدوائر وانهم مستعدون أن يثيروا انقساماً داخليا فى المدينة ليطمعوا قبائل المشركين فى غزوها ، فأراد أن يستدرجهم لتتضح نياتهم ، ولما كان يهود بنى النضير حلفاء بنى عامر ، فقد ذهب اليهم فى عشرة من كبار أصحابه يطلب اليهم معاوتتهم فى دية قتيلين من بنى عامر كان قد قتلها عمرو بن أمية خطأ^(١) . وقد أظهر اليهود غيظهم بذلك فى أول الأمر ، ثم أخذوا يتآمرون بالرسول وبأصحابه وأحس

(١) عمرو بن أمية أحد اللذين نجوا يوم بئر معونة كان قد أطلقه عامر بن الطفيل عن رقبة : زعم أنها كانت على أمه ولقى عمرو رجلين فى الطريق حين عودته الى المدينة فحسبهما من القوم الذين عدوا على أصحابه فقتلها بعد أن ناما . وبلغ المدينة وأخبر الرسول عليه السلام بشأنهما فاذا الرجلان عامريان من قوم أبى براء الذى كان قد أجاز شهداء بئر معونة وأغتالهم عامر بن الطفيل دون أن يراعى إجازة أبى براء .

الرسول أنهم ينوون اغتياله ، فما لبث أن انسحب من بين أصحابه راجعا الى المسلمين . وبعث الى اليهود محمد بن مسلمة قائلا له عليه السلام : اذهب الى يهود بنى النضير وقل لهم : ان رسول الله أرسلنى اليكم أن اخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم من الغدر بى . لقد أجلتكم عشرا ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه . واستعد اليهود للقتال ولحصار المسلمين لهم فقاتلهم المسلمون عشرين ليلة ، ثم أمر الرسول أن يقطع نخلمهم ويحرق حتى تضعف روحهم المعنوية . وجزع اليهود ونادوا يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعته فما بال قطع النخل وتحريقها . فنزلت الآية من سورة الحشر « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » . وانتظر اليهود العون ممن أطمعهم فى نصرته كعبد الله بن أبى . ولكن دون جدوى ، وملأ اليأس قلوبهم رعبا . سألوا الرسول أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذرائعهم حتى يخرجوا من المدينة . فصالحهم الرسول على أن يخرجوا منها ولكل ثلاثة منهم بغير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره . واحتمل اليهود فنزل منهم من نزل خيبرا وسار آخرون الى أذرعات بالشام وتركوا وراءهم أموالهم وأراضيهم للمسلمين . وكان ذلك خير ما غنم المسلمون . على أن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب ولذلك لم تقسم بين المسلمين بل كانت للرسول صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء . وقد قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار على اعتبار أنهم

لم يكونوا يملكون شيئا . وقد استبقى الرسول قسما خصصت غلته للفقراء والمساكين . وبذلك أصبح المهاجرون في غنى عن معونة الأنصار وأصبح لهم مثل ثرواتهم . ولم يشترك في القسمة من الأنصار الا أبو دجانة وسهل بن حنيف فقد ذكرا فقرا ، فأعطاهما الرسول كما أعطى المهاجرين . ولم يسلم من يهود بنى النضير الا رجلا ن سلما على أموالهما فأحرزاهما .

ثم كانت المرحلة الثالثة والأخيرة في طرد اليهود من بنى قريظة وذلك أن يهود بنى النضير عندما خرجوا من المدينة لم يسكتوا ، بل أخذوا يؤلبون القبائل ويحزبون الأحزاب ضد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذهب وفداهم الى قريش التي ظنت أنها خرجت من أحد منتصرة وأن غارة أخرى تهى أمر الرسول وأمر المسلمين تماما ، لذلك اعتبرت تحالفها مع اليهود فرصة سانحة للقضاء على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين . ولما اطمأن اليهود الى نصره قريش ذهبوا الى غطفان التي قبلت نصرته طمعا في الغنيمة . وتهيأت الأحزاب للحرب وحفر المسلمون خندقا حول المدينة . ووعدت بنو قريظة الرسول صلى الله عليه وسلم أول الأمر أن تفى بعهدا للمسلمين ، ولكن سرعان ما نقضت عهدا عندما حاصرت الأحزاب المدينة وأخذت تكيد للمسلمين وتستعد للغدر بهم اذا نشب القتال . عند ذلك جاء الى الرسول نعيم بن مسعود مسلما ، وعرض أن يقوم بأى عمل في جهاد المشركين وصرفهم عن المدينة فقال له عليه السلام : « خذل عنا فان الحرب خدعة » . فذهب مسعود الى بنى قريظة

وحذرهم ان هزمت قريش نجت بنفسها وتركتهم تحت رحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم نصحهم ألا يطمئنوا الا اذا أعطوهم رهائن من ساداتهم وأشرفهم ، ثم ذهب الى قريش وغطفان وأوهمهم أن بنى قريظة قد ندموا على تقضهم عهد الرسول واتفقوا معه على أن يخذعوا له قريشا وغطفان عن بعض ساداتهم فيأخذونهم رهائن ويقدمونهم اليه ليضرب أعناقهم . فاستعجلت قريش وعد قريظة لها ونصرتها ، فكان في جوابهم ما يؤكد عزم بنى قريظة على الغدر بهم .

نجحت اذن مكيدة نعيم بن مسعود وخافت قريش وغطفان من غدر القرظيين وفي تلك الأثناء ثارت الطبيعة فجعلت تكفأ قدور المشركين وخيامهم ، فأرغم كل ذلك المحاصرين على الرحيل . نصر الله المؤمنين بعد هذه الأيام الشديدة ، فحلفوا أن لا يدخلوا المدينة الا بعد أن ينتهوا من أمر بنى قريظة فحاصروهم خمسا وعشرين ليلة وعرضوا عليهم الاسلام أو القتال ، ورفض اليهود الاسلام وخافوا من القتال ، ورغبوا في أن يخرجوا من المدينة كما خرجت بنو قينقاع وبنو النضير ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض ذلك وأبى الا أن تنزل على الحكم ، ثم ان اليهود لجأوا الى الأوس حلفاءهم القدامى ، فقبل الرسول حكم واحد منهم وهو سعد بن معاذ ، وحكم سعد بأن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء . ونفذ حكمه . وهكذا تغير الوضع الاجتماعى داخل المدينة كما تغير الوضع السياسى عما كانت عليه قبل هجرة الرسول اليها ، تحولت من

موضع تنزله مجموعة من القبائل يدب بينها الخلاف الى امة من المؤمنين تجمعهم رابطة واحدة هي رابطة الدين ، ويهدفون الى غاية واحدة وهي نشر هذا الدين في ربوع الجزيرة العربية ، ونجحت هذه الوحدة السياسية الصغيرة في طرد مصدر الفتنة في دولتها الناشئة ، كذلك نجحت في اخماد فتن المنافقين واستعدت للفتح الأكبر لها وهو فتح مكة . وتم لها ذلك ، بل تم لها اخضاع الجزيرة العربية كلها وهكذا أصبحت عاصمة الدولة الاسلامية الجديدة .

وتوفي الرسول عليه السلام بعد أن أدى مهمته ، وبعد أن ترك أصحابه وخلفاءه يديرون شئون هذه الدولة الجديدة .

بهذا استطاعت يشرب أن تنافس مكة في مركزها الاجتماعي طوال عصر الرسول وأن يحتل أهلوها من الأنصار المنزلة الأولى من قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقد كانوا حريصين على هذه المنزلة أن ينالها أى غبن أو اهمال حتى أن نفوسهم تغيرت بعض الشيء ، وساورتهم بعض الشكوك بعد فتح مكة وبعد أن فرق الرسول غنائم هوازن في المؤلفة قلوبهم من سادات قريش وغيرها من قبائل العرب ، فظنوا أن الرسول صار في غنى عنهم بعد أن لقي قومه ، فلم يعد يحفل بهم كما كان من قبل ، فلما بلغ الرسول ذلك أمر سعد بن عباد أن يجمع له الأنصار ، ثم خطب فيهم خطبته الرائعة التي بين للأنصار فيها في عبارة سلسلة أخاذة نعمة الاسلام عليهم اذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة ، ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم لرسالته وايواءهم اياه

ومواساتهم له ، ثم عتب عليهم في كياسة وظرف تطلعهم الى هذا الفىء الذى أفاءه الله عليهم ففرقه في نفر حديثى الاسلام تطيبا لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة ، معتمدا على حسن اسلام الأنصار وصدق رغبتهم في نشر الدين واعلاء كلمة الله ، ثم أكد محبته اياهم واشارهم على غيرهم من العرب ، وأخيرا أعلن اليهم أنه منهم ، ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم .
ولقد بكى الأنصار بعد هذه الخطبة وطابت نفوسهم برضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدوا ذلك غنما عظيما (١) .

فقد روى الطبرى أنه لما اجتمع الأنصار برسول الله ، حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصار ! مقالة بلغتني عنكم وموجدة وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ! لله ولرسوله المن والفضل . فقال عليه السلام : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ! قال عليه السلام : أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتينا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك . وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة (٢) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم . أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبيعير وترجعوا برسول الله الى

(١) انظر تاريخ الاسلام الياس ١ : ١١٦ .

(٢) نصيب قليل من الدنيا .

رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظا . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا .

ذلك هو موقف الأنصار من أنفسهم ومن مدينتهم ، وذلك هو موقف الرسول صلى الله عليه وسلم منهما معا . ولقد أنصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم كما أنصف مدينتهم فجعلها عاصمة المسلمين وجعلها مقامه فى حياته ومثواه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

حققت المدينة اذن تغييرا فى تركيبها الاجتماعى والسياسى فى عصر الرسول كما حققت تغييرا أخطر من هذا كله وهو تغييرها النفسى ، أما التغير الاجتماعى والسياسى فقد عرضناه ويتلخص فى تألف قلوب الأوس والخزرج وخمود نار الفتنة والحققدهم ، ثم فى تطهير المدينة من عنصري الفتنة فيها وهما المنافقون واليهود ، أما المنافقون فقد انكشف أمرهم وحوربوا بكل الوسائل حتى قضى عليهم ، وأما اليهود فقد طهرت المدينة وما جاورها من القوى منهم وانتهى أمرهم اما بقتلهم أو بنفيهم خارج الجزيرة العربية . وأصبحت المدينة عاصمة المسلمين ومقر الرسالة والنبوة والخلافة فى عصر الخلفاء الثلاثة الأول رضى الله عنهم ، منها كانت توجه الغزوات لمحاربة المشركين ومبشرى الفتنة

والشر ، ومنها تخرج وفود المؤمنين لتعليم القبائل أسس العقيدة الجديدة . وشريعة الاسلام الغراء .

أما التغير النفسى فقد انعكس فى مظاهر حياة المؤمن الأنصارى ثم فى حياة جماعة الأنصار ممثلين لمدينتهم طوال حياة الرسول وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم .

ان أبرز مظاهر التحول فى نفسية الأنصارى تتضح فى عناصر ثلاثة ودلالاتها وهى الايمان والاخاء والفداء ، فانا اذا بحثنا عن هذه العناصر فى الجاهلية لوجدنا اختلافا كبيرا ، لم يكن الجاهلى يؤمن عقائديا بشىء ، كانت صلته بالأوثان صلة انتفاع ، فان حقق الوثن له ما يتمناه احترمه واذا لم يحقق سبه وحطمه وقد يبول عليه أو يأكله ^(١) ، كذلك كان ايمانه بعصيته ايمان انتفاع ، فلولا هذه العصبية ما أمن على حياته ، وكثيرا ما كانت القبيلة تخلع أحد أفرادها اذا ارتكب ما يهدد أمنها العام ، وعندئذ يهدر دمه فيخرج باحثا عن جوار ، فان لم يجد تصعلك وفقد ايمانه بهذه العصبية . أما الأنصارى — وكل مسلم — فقد أصبح الايمان عنده عقيدة مرتبطة بمثل وقيم جديدة ليس لها هدف نفعى ، ثم هى متصلة بالعقل والقلب ، وهما يتجهان نحو عالم تمتزج فيه عناصره المادية والروحية امتزاجا خاصا لم يكن للعربى به سابق معرفة .

واذا كان لكل ايمان سلوك فى الحياة يشتد الارتباط به كلما

(١) كان لأحد الأعراب صنم من تمر فلما جاع أكله !

تعمقت العقيدة في نفس صاحبها فان سلوك الأنصار أوضح دليل على أن إيمانهم بلغ من نفوسهم أعماق أغوارها ، وفي أقصر زمن ممكن يمكن أن يتم فيه تحول انسان من دين الى دين .

ولم يكن قبول الأنصار لمبدأ الاخاء بأقل خطرا من الايمان دلالة على تغير هذه النفسية من حال الى حال ، لقد كان القانون الجاهلي بين قبائل يثرب هو قانون الصراع والعداوة رغم أنها قبائل من بطون واحدة وأبناء عمومة وخولة متصلة ، والصراع بين القبائل دائما ما يقوم على اختلاف حول موارد العيش ، وكل قبيلة تحب أن تنافس الأخرى في هذه الموارد ، وتحفظ لنفسها بعوامل البقاء ، فاذا حدث أن أفراد قبيلة قبلوا أن يكتسب معهم ثرواتهم ومصادر رزقهم أفراد آخرون ليسوا من قبيلتهم أو متصلين بأنسابهم فلا شك أن هذا دليل على حدوث شيء جديد في نفسية هؤلاء الناس ، وأن تغيرا جذريا شمل أعماق تكوينهم النفسي والفكري معا ، ولا شك أيضا أن أهم ما يدل عليه هذا التغير هو استعداد هؤلاء الأفراد لأن يتنازلوا عن كثير من مظاهر عصبيتهم الجاهلية ومكاسبهم الفردية ، ثم قبول مبدأ التوحد والتكتل في سبيل مبادئ ومثل عليا لم يكن لها وجود في ماضيهم الجاهلي .

وهنا يأتي العنصر الثالث ، فاذا كان الايمان قد وهبهم هذه الروح الجديدة ، واذا كان الاخاء مظهرا من مظاهرها ، فلا شك أن الفداء بهذا المفهوم الذي رأيناه عندهم اكمال لشخصية المسلم الجديد ، وتتمة للتغير الذي حدث في نفسية الجاهلي

القديم . ان هذا العربي الذى يعلم أن بينه وبين الاستشهاد ودخول الجنة هى التمرات التى يأكلها ، فيقذفها من يده لينعم بما هو خير وأبقى فى الجنة — لذى روح جديدة ، وهو يؤكد مدى ما طرأ من تحول على نفسية المسلمين . وان أبا دجاجة الذى يأخذ سيف الرسول ليقاتل به فيستوهب منه القوة ، ويستمد منه الجرأة ، ثم يحرص بعد ذلك على أن لا يمس جسد امرأة هو نموذج لما استطاع الدين الجديد أن يقوم به نفوس الجاهليين .

واذا نظرنا بعد ذلك فى نفسية الثريين كممثلين لمدينتهم — مدينة الرسول — وما طرأ عليها من تغير فسنجد أن أهم مظهر لها هو هذا المفهوم الجديد الذى تقبلت به معنى الغزو أو الحرب ، لقد أصبح القتال فى سبيل العقيدة وليس فى سبيل أى شئ آخر ، أى تحول هدفه من مكسب مادى الى مكسب روحى ، ومن رغبة فى الحصول على نعيم الدنيا الى رغبة فى نيل رضى الله تعالى وحب الرسول عليه السلام . ولم تكن العرب تألف هذا النوع من القتال ، اذ كان قتالها دفاعا عن عصية غاضبة ، أو انتهابا لأموال مملوكة ، وبذلك نجحت يثرب — مدينة الرسول — فى تغيير هدف القتال فى الجزيرة العربية حتى نهاية عصر الفتوح الكبرى الذى انتهى بانتشار الاسلام حتى شمالى أفريقيا وشبه جزيرة ايبيريا فى الغرب ثم سهول الصين وجزر الهند الشرقية فى الشرق !

كذلك خرج من يثرب أول دعاة حقيقين للاسلام كتلك

الوفود التى كان يبعث بها الرسول الى القبائل لهداياها وتعليمها الكتاب والشريعة ، فمنهم من نجح فى مهمته ، ومنهم من استشهد فى سبيل دعوته ، وما شهداء يوم الرجيع وبئر معونة الا مثل رائغ من أمثلة العقيدة الراسخة والتغير الهائل الذى طرأ على نفوس الجاهليين .

والآن كيف عبر الشعر عن كل هذا التغير ؟ هل وقف جامدا عند نعماته الأولى التى كانت تصدح فى كل بقاع الجزيرة أم اتخذ نعمات أخرى تتفق والحياة الجديدة ؟ هل بقيت وظيفته مرتبطة بالعصبية والتمسح ، أم تغيرت الوظيفة لتناسب الأوضاع الاجتماعية والسياسية الطارئة ؟ هل ما زالت النماذج الجاهلية للفتوة هى المثل الأعلى للمسلم كما كانت للجاهلى أم تغيرت هذه النماذج بما يتفق والبعث الجديد ! وأخيرا هل استطاع حسان أن يطور فنه ليعبر عن روح العصر أم وقف جامدا حائرا لا يدري مصيره فى هذه الحياة الجديدة ؟ ! هذا ما سوف نجيب عليه الآن .

الفصل الثانى

حسان فى عصر الرسول

١ - اسلام حسان :

ربما كان أول ما يجب أن نسأل عنه قبل أن نجيب عن الأسئلة السابقة هو متى أسلم حسان ؟ لقد بحثنا عن مصدر فيه نص صريح يجيب عن هذا السؤال فلم نجد ، غير أننا نلاحظ أن بنى النجار — قبيلته — قد ساهمت فى أولى المحادثات قبل العقبتين الأولى والثانية ، كما أن للخزرج — قبيلته الكبرى — نصيبا كبيرا فى اختيار النقباء اذ اختير منهم تسعة نقباء من بين اثنى عشر نقيبا ، وكان بين هؤلاء التسعة ابن خالته المنذر بن عمرو بن خنيس وصديقه عبد الله بن رواحة ، كما كان أخوه أوس بن ثابت أحد من بايعوا الرسول فى العقبة الثانية . ولما كان حسان رجل القبيلة ، لا يخرج على تقاليدها أو أحلافها أو أوامرها ، فلا شك أنه استعد للدخول فى الاسلام منذ أن استعدت قبيلته ، وإذا كان الخزرج عامة وبنى النجار خاصة قد حالفوا الرسول وأبدوا استعدادهم للدخول فى دينه والدفاع عنه منذ وقت مبكر وقبل هجرته عليه السلام الى مدينتهم ، فلا شك أن حسان قد فعل مثلهم أيضا ، لأننا لا نجد شاهدا يدل على أنه كان صاحب رأى فيهم أو شخصية لها استقلالها عنهم أو موجهة لجموعهم .

وهنا نأتى الى مبحث آخر وهو : كيف كان اسلام حسان ؟
هل هو اسلام المؤمن الحريص على الدين عقيدة وسلوكا أو هو
انتقال الى دين وجد نفسه يعتنقه كما اعتنقته قبيلته لا ارادة له في
ذلك وانما تبعية لا يستطيع أن يخرج عليها والا وجد نفسه غريبا
بين قومه وفي مدينته .

لاشك أن أى دارس لا يستطيع أن يتناول شخصية بالبحث
والدراسة ويترك فيها شبهة مثل تلك الشبهة التى أثارها القدماء
والمحدثون ولم ينتهوا فيها الى رأى ، وخاصة أن شخصية حسان
التي تتناولها بالدراسة شخصية احتلت مكانة مرموقة في تاريخ
المسلمين وسجلت احترامها وخلودها في صفحاته .

ربما كان أخطر ما يمس هذه الشخصية من تلك المسألة هي
ما سجلته المصادر من اشتراكه في حديث الافك ^(١) وتقوله فيه .
فقد حدث أن خرجت السيدة عائشة زوج الرسول عليه السلام في
غزوة بنى المصطلق مع جيش المسلمين ، وأثناء رجوع الجيش
تخلفت عنه لقضاء حاجة فتأخرت وسبقها المسلمون الى المدينة ،
ثم وجدها صفوان بن المعطل السلمى وكان قد تأخر هو أيضا
فأركبها ناقته ودخل المدينة ، فلما رآهما المنافقون تقولا في ذلك ،
وحزن الرسول عليه السلام حزنا شديدا حتى أنزل الله وحيه براءة
السيدة عائشة وتكذيب المنافقين . « ان الذين جاءوا بالافك عصابة
منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم

(١) انظر تفصيل هذا الخبر في كتب الحديث وفي سيرة ابن
هشام ٣ : ٣٠٨ - ٣٢١ وكتب الأخبار مثل الأغاني ٤ : ١٥٤ .

ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » (١) وتحدثنا كتب الأخبار وكتب التفسير فتكاد تجمع على أن هذه العصبة التي أشار إليها القرآن الكريم تتكون من عبد الله ابن أبي بن سلول ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش وحسان بن ثابت ! وقد زادت بعض هذه الكتب أن الثلاثة الآخرين قد حدهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، جاء في سيرة ابن هشام عن عائشة أنه عندما نزل الوحي الكريم بتبرئتها جاء الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : ابشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك . قالت : قلت : بحمد الله ، ثم خرج الرسول الى الناس فخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك ، ثم أمر بمسطح بن أثانة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم (٢) .

وجاء في تفسير (٣) آية « ان الذين جاءوا بالافك ... » من سورة النور أن عبد الملك بن مروان كتب الى عروة يسأله عن الذين جاءوا بالافك فأجابه عروة : كتبت الىّ تسألني في الذين جاءوا بالافك وهم كما قال الله : ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم .. وانه لم يسم منهم أحد الا حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش وقال ابن عباس : الذين افتروا على عائشة عبد الله بن أبي وهو الذي تولى كبره ، وحسان بن ثابت ومسطح وحمنة بنت جحش .

(١) النور ١١ (٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) تفسير الطبرى .

وقد كان للمسلمين موقف من هؤلاء الثلاثة فأما مسطح فقد كان أبو بكر رضى الله عنه ينفق عليه لقربته وحاجته ، فلما نزلت براءة عائشة قال : والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا ، ولا أنفقه بنفع أبدا بعد الذى قال لعائشة وأدخل علينا . قالت السيدة عائشة رضى الله عنها فأنزل الله فى ذلك « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » (١) عند ذلك قال أبو بكر : بلى والله ، انى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع الى مسطح ونفقتة التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا .

وأما حمنة بنت جحش فقد قالت عنها عائشة : « وأما حمنة بنت جحش ، فأشاعت ما أشاعت تضادنى لأختها (٢) فشقيت بذلك . وأما حسان فقد ذهب اليه صفوان بن المعطل واعترضه وضربه بالسيف — وكان حسان قد هجاه — فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه الى عنقه بحبل ثم انطلق به الى دار بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال : ما هذا ؟ قال : أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ! والله ما أراه الا قد قتله . قال له عبد الله بن رواحة : هل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء مما صنعت ؟ قال : لا والله ؛

(١) النور ٢٢ .

(٢) أختها زينب بنت جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : لقد اجتترأت ! أطلق الرجل ! فأطلقه . ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا ذلك له ، فدعا حسان وصفوان بن المعطل ، فقال ابن المعطل ! يا رسول الله : آذاني وهجاني ، فاحتملني الغضب فضربته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان : أحسن يا حسان ، أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام ! ثم قال : أحسن يا حسان في الذي أصابك ، قال : هي لك يا رسول الله .

وواضح من هذا أن حسان لم ينل عطف الرسول في هذا الحادث بل لقد أنبه الرسول عليه السلام قائلاً له « أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام » والسبب في ذلك تلك الأبيات التي قالها حسان يعرض فيها بابن المعطل وبمن أسلم من قريش والتي أولها .

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا

وابن الفريعة أمسى بيضة البلد

ولا شك أنه موقف غريب من حسان ان صحت نسبة تلك

الأبيات وإن كنت لم أجد من يشك في نسبتها له !

ولا شك أن مثل هذا الخبر لا يمر بسهولة عند كبار المحدثين

دون أن يبدو فيه رأيهم ، لأنه يدور حول شخصيتين اسلاميتين كبيرتين أولاهما زوج الرسول صلى الله عليه وسلم وأحب نسائه اليه ، وآخرهما شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم والمنافع عنه ضد شعراء المشركين .

ولقد روى المحدث الأندلسي ابن عبد البر أن قوما ذكروا أن

حسان كان ممن خاض في الأفك على عائشة رضى الله عنها وأنه جلد في ذلك ، ثم ان قوما آخرين أنكروا أن يكون حسان قد خاض في الأفك أو جلد فيه .

وقد روى ابن عبد البر خبرا عن عائشة رحمها الله تبرىء حسان من هذه التهمة . فقد ذكر الزبير بن بكار قال حدثني ابراهيم ابن المنذر عن هشام بن سليمان عن ابن جريج عن محمد بن السائب ابن بركة عن أمه أنها كانت مع عائشة في الطواف ومعها أم حكيم بنت خالد بن العاصى وأم حكيم بنت عبد الله بن أبى ربيعة فتذاكرتا حسان بن ثابت بالسب ، فقالت عائشة : ابن الفريعة تسبان ؟ انى لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه عن النبى صلى الله عليه وسلم بلسانه . أليس القائل :

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء
فبرأته من أن يكون افترى عليه ، فقالتا : أليس ممن لعنه الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ فقالت : لم يقل شيئا ولكنه الذى يقول :

حسان رزان ما تزن بريية
وتصبح غرثى في لحوم الغوافل
فان كان ما قد قيل عنى قلته

فلا رفعت سوطى الى أناملى
وهذان البيتان الأخيران ضمن أبيات قالها حسان في مدح السيدة عائشة نفى فيها ما نسب اليها من تهمة ، كما نفى ما نسب

إليه من تقوّل فيها وواضح من الخبر أن الأنصار بل سكان مدينة الرسول كلهم يشيرون بأصبع الاتهام الى حسان ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم والسيدة عائشة رضى الله عنها يحاولان إبعاد الشبهة عنه لمكاته في نفسيهما ، ولذبه عن الاسلام والمسلمين في شعره . نشعر بذلك خاصة في ذلك الخبر الذى رواه الطبرى عن عائشة رضى الله عنها في تفسيره أنها قالت ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان ، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة . قوله لأبى سفيان .

هجوت محمدا فأجبت عنه

وعند الله في ذاك الجزاء

فان أبى ووالده وعرضى

لعرض محمد منكم وقاء

أتشتمه ولست له بكفاء

فشركما لخيركما الفداء

لسانى صارم لا عيب فيه

وبحرى ما تكدره الدلاء

فقليل : يا أم المؤمنين ، أليس هذا لغوا . قالت : لا انما اللغو ما قيل عند النساء . قيل : أليس الله يقول « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » (١) قالت أليس قد أصابه عذاب عظيم ، أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف (٢) ! ؟

(١) أى الذى أشاع افتراء الافك وأكثر من ترديده .

(٢) كان حسان قد ذهب بصره في أواخر حياته كما سيأتى فيما بعد ، وأما كنعه بالسيف فذلك عندما ضربه صفوان بن المعطل .

هذا هو حديث الافك وموقف حسان منه ، ثم موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وعائشة رضى الله عنها والمسلمين جميعا من حسان فى مسألة خوضه فى هذا الحديث ، ولقد حاول حسان أن ينفى فى شعره أنه خاض فى هذا الحديث ، وذكر أن كل ما نسب اليه فيه انما هو محض افتراء عليه ، واشاعة ليس لها أى ظل من الحقيقة . يقول فى مدحه لعائشة رضى الله عنها :

مهذبة قد طيب الله خيمها

وطهرها من كل سوء وباطل

فان كنت قد قلت الذى قد زعمتم

فلا رفعت سوطى الى أناملى

وكيف وودى ما حييت ونصرتى

لآل رسول الله زين المحافل

له رتب عال على الناس كلهم

تقاصر عنه سورة المتناول

فان الذى قد قيل ليس بلائط

ولكنه قول امرىء بى ما حل

ولكن هل اقتصرت أدلة الباحثين فى دراسة صدق تدين حسان

عند هذا الدليل فحسب ، انهم يجدون حسان يدافع عن جبلة ابن

الأيهم أمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما ارتد جبلة عن

الاسلام متنصرا وسافر الى الشام ، كذلك يجدون فى شعره

الاسلامى بقايا عصبية قبلية ، وعنجهية جاهلية لم يتغلب عليها

الاسلام بعد ، فكثيرا ما كان يمدح الرسول بلسان الأنصار

أو الخزرج بصفة خاصة ، ويفخر بما أدوه للإسلام والمسلمين
وكأنه يفخر ويمن على قبيلة نزلت في جوارهم وليس على اخوة لهم
في الدين . يقول :

كنا ملوك الناس قبل محمد
فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل
ويقول :

ألا أيها الساعى ليدرك مجدنا
نأتك العلا فاربع عليك بسائل
فهل يستوى ماءان أخضر آجن
وحى ظنون مأوه غير فاضل
الى أن يقول :

ونحن سبقنا الناس مجدا وسؤددا
تليد وذكرنا ناميا غير خامل
لنا جبل يعلو الجبال مشرف
فنحن بأعلى فرعه المتطاوّل
مساميح بالمعروف وسط رحالنا
وشباننا بالفحش أبخل باخل
ومن خير حى يعلمون لسائل
غيثا وعان موثق في السلاسل
ومن خير حى يعلمون لجارهم
إذا اختارهم في الأمن أو في الزلازل
وتشتد لهجة الفخر بالأنصار والخزرج خاصة ، بل انها تنقلب

الى عتاب للرسول يوم فتح مكة عندما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم على مقدمة الجيش قبيلة سليم بقيادة خالد بن الوليد ، وكان الأنصار يريدون أن يكونوا هم أول من يدخل مكة امعانا في اذلال قريش التي حاربتهم ، وأسقطت كثيرا من أبنائهم شهداء في ميدان القتال . يقول :

دع عنك شعناء اذ كانت مودتها
نزرا وشر وصال الواصل النزر
وأنت الرسول فقل يا خير مؤتمن
للمؤمنين اذا ما عدل البشر
علام تدعى سليم وهى نازحة
أمام قوم هم آووا وهم نصروا
سامهم الله أنصارا لنصرهم
دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وجاهدوا في سبيل الله واعترفوا
للنائبات فما خامو وما ضجروا
والناس ألب علينا ثم ليس لنا
الا السيوف وأطراف القنا وزر
نجالد الناس لا نبقى على أحد
ولى وتتبع ما توحى به السور
ولا يهر جناب الحرب مجلسنا
ونحن حين تلظى نارها سمر

وكم ردونا ببدر دون ما طلبوا
 أهل النفاق وفينا أنزل الظفر
 ونحن جندك يوم النعف من أحد
 اذ حزبت بطرا أشياعها مضر
 فما ونينا وما خمنا وما خبروا
 منا عثارا وجل القوم قد عثروا

فهذا نوع من العتاب والمن ، كان أجدر بحسان أن لا يخوض فيه ، ولكن يظهر أن تهور حسان الذى عرفناه له فى جاهليته ، قد أظهر أثره فى اسلامه ، لأن رجلا يتقول على زوج الرسول بأخبث ما يشين امرأة ، ويأسف على أيام الجاهلية فى شعره ، ويذكر الرسول بما أداه الأنصار وخاصة الخزرج له وللمسلمين ، ثم يدافع عن ارتداد صديقه جبلة بن الأيهم وتحوله الى المسيحية ثم يشارك - كما سنرى فيما بعد - فى فتنة عثمان - وكان يمكنه أن يعتزل الأحداث وخاصة لكبر سنه فقد كان قد بلغ المائة - كل ذلك يلجئ الباحثين الى القول بأنه ربما كان رقيق الاسلام .

ويقف باحثون آخرون يردون على الأدلة السابقة فيقولون أما حديث الافك فليس من المقطوع به أن حسان قد شارك فيه فكما يقول ابن عبد البر « قال قوم وأنكر آخرون » وتأتى شهادة للسيدة عائشة فى صفه عندما نفت أنه تقول فيها بشيء ، أما إذا كان قد قال شيئاً لغضبه مما ظن أنه قد وقع ، فقد غضب كما غضب كل المسلمين حتى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه نصح الرسول بأن يطلق السيدة عائشة ويتزوج غيرها وكان ذلك قبل تبرئة الله

عز وجل لزوج الرسول ، وعلى هذا فلا يطعن مشاركته في الخوض في هذا الحديث في صدق ايمانه وتمسكه بدينه . وأما ذكره لأيام الجاهلية فقد كان وسيلة للفخر على شعراء المشركين وكما سنرى فيما بعد أن منهج حسان في معارضة شعراء المشركين ومناقضتهم أنه كان يرد عليهم بمثل موضوعاتهم التي كانت تعتمد على الفخر بالأنساب والأيام والأمجاد الجاهلية على عكس عبد الله بن رواحة الذى كان يرد عليهم بما أنعم الله على المسلمين من فضائل ومثل . ولم يكن عتاب حسان للرسول أنه قدم بنى سليم على الأنصار في فتح مكة الا تعبيراً عن رأى بعض جماعة الأنصار ، ولم يكن هذا الرأى ليمس الرسول أو الدين فى شىء ، لأنهم يقصدون أن يكون لهم الفضل فى الفتح والرغبة فى الاستشهاد ، ولأنه لم يكن يتوقع أحد أن يتم فتح مكة دون قتال . هذا الى جانب أن مخاطبة حسان للرسول على هذه الصورة دليل واضح على حرية الرأى التى كان يتمتع بها المسلمون فى ظل هذا الدين الجديد ، وأن مناقشة الرسول فى تدبيره لشئون المسلمين لم تكن محرمة ، فالرسول ليس دكتاتوراً يفرض ما يريد ، بل لقد كان يستشير كبار الصحابة فى كل ما يمس شئون المسلمين وأحياناً ما نزل الوحي مؤيداً لمشورة المسلمين ومعارضاً رأى الرسول .

أما ما جاء من دفاع حسان عن ارتداد جبلة ، فلم يكن يهدف الى تأييده فى ارتداده وموافقته على تحوله الى النصرانية والا لكان شأنه مع عمر بن الخطاب أخطر من ضربة من درته ، ولكنه تعبير عن احساس بوفاء لهذا الرجل الذى منحه العطايا الكثيرة فى

الجاهلية واستمر في منحها له في الاسلام . ويجب أن تتصور جيدا أنه ليس من السهل على رجل عاش نصف عمره في الجاهلية أن يقتنع لاشعوريا بأن من حق بدوى فقير أن يصفع أميرا خطيرا كجبله لأن الأخير داس دون قصد منه على أزاره مهما حاول أن يقتنع شعوريا بأن لا فرق بين فقير وأمير كما يقول الاسلام ، فإن الاحساس بالفارق الطبقي كان ما يزال يجد صدها في نفسية بعض المسلمين .

مهما يكن من شيء فإن الرسول عليه السلام وضع حسان في منزلة كبيرة من نفسه ، كما وضعت قصائد حسان في الرسول صاحبها في منزلة كبيرة من نفوس المسلمين . فعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن حسان: لا يحبه الا مؤمن ولا يبغضه الا منافق . وروى أبو الفرج الأصفهاني وغيره : لما كان عام الأحزاب ورد الله الذين كفروا بغیظهم لم ينالوا خيرا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : من يحمى أعراض المسلمين : فقال كعب بن مالك أنا يا رسول الله ! وقال كعب بن رواحة : أنا يا رسول الله ! وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله ! فقال عليه السلام : نعم اهجم أنت (يعنى حسان) فانه سيعينك روح القدس . وروى أيضا : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان فشفى واشتفى .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب أن يستمع الى شعر

حسان ، فقد سأل عنه في سفر قائلًا : أين حسان بن ثابت ؟ فقال حسان : لييك يا رسول الله وسعديك ! قال عليه السلام : « أَحَدُ » فجعل حسان ينشد والنبي صلى الله عليه وسلم يصغى ويستمع ، فما زال يستمع اليه وهو سائق راحلته فلما فرغ من انشاده قال النبي صلى الله عليه وسلم « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » يعنى بذلك المشركين .

واستمر تقدير المسلمين لشعر حسان بعد وفاة الرسول ، فعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل الى ابن عباس فقال : قد جاء اللعين حسان من الشام . فقال ابن عباس : ما هو بلعين ، لقد جاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ولسانه ونفسه .

ومر الزبير بن العوام بمجلس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسان ينشدهم من شعره وهم غير نشاط لما يسمعون منه ، فجلس معهم الزبير فقال : مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة ، فلقد كان يعرض الرسول صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه بشيء . فقال حسان يمدح الزبير :

أقام على عهد النبي وهديه

جواريه والقول بالفعل يعدل (١)

وكان حسان يشعر بقدره هذا وبمكاته عند الرسول والمسلمين فقد حدث أن مر عمر بن الخطاب بحسان بن ثابت وهو ينشد الشعر

(١) سبق أن شككنا في صحة نسبة هذه الأبيات لحسان في التمهيد . ولكن لا شك أن الخبر يدل على اعزاز المسلمين لحسان .

فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ بأذنه وقال له :
أرغاء كـرغاء البعير ! فقال حسان : دعنا منك يا عمر ، فوالله لتعلم
أنى كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك فلا يغير علىّ ،
فتركه عمر وانطلق !

لقد اعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسان فى الرد
على شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزبعرى وأبى سفيان بن
الحارث بن عبد المطلب ، وضرار بن الخطاب وعمر بن العاص ،
وقد استطاع حسان أن يكون ندا لهم ، وأن يتفوق عليهم . روى
أنه قيل لعلى بن أبى طالب : أهج عنا القوم الذين هجونا ، فقال
علىّ : ان أذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت . فقال رجل :
يا رسول الله : ائذن لعلى كى يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا .
فقال عليه السلام : ليس هناك أو ليس عنده ذلك . ثم قال للأنصار :
ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
بسلاحهم أن ينصروه بالسنتهم ؟ وكان الأنصار فى أول الأمر
يخشون أن يهجو مشركى مكة من قريش لأنهم أقرباء الرسول
ومن قبيلته عليه السلام . فلما أذن لهم الرسول بأن يهجوهم قال
حسان بن ثابت : أنا لها . وأخذ يطرف لسانه ويقول : والله
ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء . فقال له الرسول : كيف
تهجوهم وأنا منهم ؟ قال : انى أسلك كما تسلك الشعرة من
العجين . قال الرواة : فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان
ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان
وكعب يعارضانهم بمثل الوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب .

وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . فكان هجاء حسان
وكعب لقريش قبل اسلامهم من أشد القول عليهم ، وأهونه عليهم
هجاء عبد الله بن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الاسلام كان أشد
القول عليهم هجاء ابن رواحة .

ويظهر أن اعتلاء حسان منصب شاعر الرسول الرسمى جعلهم
يصنعون له منبرا خاصا في مؤخرة المسجد ليقف فوقه ينشد
شعره الذى ينافح به عن الرسول والمسلمين . وقد اعتلاه حسان
في يوم انتصاره الفنى العظيم على شعراء وخطباء بنى تميم في
وفودهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا سبعين
أو ثمانين رجلا فيهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعطار
بن حاجب وقيس ابن عاصم وعمرو بن الأهتم ومعهم عيينة بن
حصن وذلك ليناصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .
فوقف ثابت بن قيس بن شماس لعطار بن حاجب ، ووقف حسان
ابن ثابت للزبرقان بن بدر فقال عينيته المعروفة :

ان الذوائب من فهر واخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبع

ووقف أيضا لعطار بن الحاجب وأنشد ميمته :
منعنا رسول الله من غضب له

على أنف راض من معد وراغم
هل المجد الا السؤدد العود والندى

وجاء الملوك واحتمال العظام
فقال الأقرع بن حابس : والله ان هذا الرجل لمؤتى له ! والله

لشاعره أشعر من شاعرنا ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ،
ولأصواتهم أرفع من أصواتنا . ثم قال : أعطني يا محمد ! فأعطاه
عليه السلام . فقال : زدني ! فزاده . فقال : اللهم انه سيد الناس .
ثم أسلم الوفد .

ويستطيع من يستعرض الديوان ومخطوطاته أن يلمح الجهد
الذى بذله حسان فى الدفاع بشعره عن المسلمين ، فقد هجا ابن
الزبيرى وسفيان بن الحارث وأبا جهل بن هشام ، والحارث بن
هشام ، والوليد ابن المغيرة ، وعتبة بن أبى وقاص ، وعمرو بن
العاص ، ومسافع بن عياض ، وأبا البخترى ، وأمّية بن خلف
وصفوان بن أمّية ، كما هجا كعب بن الأشرف ، وهجا هذيل
يوم الرجيع ، وبنى سليم فى الردة ، كذلك هجا اليهود من بنى
قريظة وبنى النضير ، ثم مدح الرسول صلى الله عليه وسلم
وافتخر بانتصارات المسلمين فى غزواتهم ، ورثى الرسول عليه
السلام وسعد بن معاذ وشهداء بئر معونة والرجيع وسليط بن
قيس البخارى وحمزة وجعفر وخبيبا وزيد بن حارثة ومطعم بن
عدي .

وهكذا كان حسان لسان حال المسلمين ، ومصور أفراحهم
وأحزانهم ونستطيع أن نوضح ذلك اذا سرنا مع شعر حسان ومع
تطور الأحداث فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم .
وأحب قبل أن أستعرض اشتراك حسان فى هذه الأحداث
بشعره أن ألفت النظر الى أن بعض الأحداث التى وقعت قبل
الهجرة وقبل اسلام أهل يثرب قد ذكرها حسان فى شعره بعد

الهجرة . وقد روى هذا الشعر بعض الاخباريين أثناء ذكرهم لتلك الأحداث مما قد يوهم أنها نظمت وقت وقوع الحدث وهذا غير صحيح لأن حسان في هذا الوقت لم يكن قد أسلم بعد . مثال ذلك مدح حسان لهشام بن عمرو في نقضه للصحيفة التي كان قد تعاهد فيها المشركون من أهل مكة على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين وحصارهم . وقد استمرت هذه المقاطعة ثلاث سنوات احتتمى فيها الرسول وأصحابه في شعب من شعاب الجبل خارج مكة يعانون من الحرمان ألوانا ، ولم يكن يتاح لهم الاختلاط بالناس والتحدث اليهم الا في الأشهر الحرم . عندئذ قام عمرو بن هشام وبعض صحبه كزهير بن أمية والمطعم بن عدي وأبى البختري بن هشام وزمعة بن الأسود بنقض هذه الصحيفة وبذلك أتيح للرسول وأصحابه أن يعودوا من الشعب الى مكة وأن يبيعوا قریشا ويتاعوا منها . يقول حسان في مدح هشام ابن عمرو :

هل يوفين بنو أمية ذمة

عقدا كما أوفى جوار هشام

من معشر لا يغدرون بجارهم

للحارث بن حبيب بن سخام

واذا بنو حسل أجاروا ذمة

أوفوا وأدوا جارهم بسلام

ولهذا السبب أيضا سيرثي حسان فيما بعد المطعم بن عدي

حين مات بأبياته التي أولها :

أيا عين فابكى سيد القوم واسفحى
 بدمع ، وإن أنزفته فاسكبى الدما
 ومن هذه القصيدة قوله :
 فلو كان مجد يخلد الدهر واحدا
 من الناس أبقي مجده اليوم مطعما
 أجرت رسول الله منهم فأصبحوا
 عبيدك ما لبي مهمل وأحرما
 فلو سئلت عنه معد بأسرها
 وقطحان أو باقى بقية جرهما
 لقالوا هو الموفى بخفرة جاره
 وذمته يوما اذا ما تدمما

ب - حسان والأحداث :

١ — قبل الهجرة : ليس بين أيدينا نصوص تصور حياة
 حسان منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى هجرته الى
 يثرب واذا كنا قد أشرنا الى احتمال دخول حسان في الاسلام
 بعد بيعتي العقبة فالذى لا شك فيه أن حسان استقبل الرسول
 في يثرب مسلما كمعظم سكان هذه المدينة .

ومما يؤكد ظنى الذى ذكرته آنفا وهو أن حسان أسلم قبيل
 هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم رواية عن ابن اسحق — ان
 كان قد صدق فيها — يقول فيها : وكان أول شعر قيل في الهجرة
 بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس :

تداركت سعدا عنوة فأخذته
وكان شفاء لو تداركت منذرا
ولو نلته ظلت هناك جراحه
وكان حريا أن يهان ويهدرا
فقال حسان يجيبه بأبياته التي أولها :
لست الى عمرو ولا المرء منذر

إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا
وكان خبر هذه الأبيات أن قريشا طلبت الأوس والخزرج بعد
بيعة العقبة وتنصيب النقباء الاثنى عشر وقد استطاعت أن تأسر
سعد بن عباد والمنذر بن عمرو ، وكلاهما كان تقيبا ، غير أن
المنذر استطاع أن يفلت منهم وبقي سعد بن عباد مأسورا حتى
تخلصه جبير بن مطعم بن عدى والحارث بن حرب بن أمية ، وكان
بينهما وبين سعد بن عباد جوار . وتعلق أقدم مخطوطة لديوان
حسان قائلة ان أبيات حسان هذه هي أول شعر قاله في الاسلام .
وبهذه الأبيات يكون حسان قد بدأ يوجه طاقاته الفنية وعصبيته
القبلية والفنية نحو هذا الصراع الجديد الذى بدأ يبرز في الأفق
وهو صراع المدينتين العتيقتين مكة ويثرب ، وصراع العقيدتين
الأزليتين : الوثنية والتوحيد .

وتدور المعانى فى أبيات حسان حول القيم الجاهلية فهو
ما زال ينظر الى أسر سعد بن عباد ومحاولة أسر المنذر بن عمرو
نظرته الى الشقاق القبلى ، ثم يخرج من هذا الى تهديد الشاعر
بأنه بهجائه لسعد والمنذر وقومهما كمن يحفر لنفسه قبره :

فلا تك كالشكلى وكانت بمعزل
عن الشكل لو كان الفؤاد تفكرا
ولا تك كالشاة التى كان حثها
بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا

ج - حسان والغزوات :

ليس من غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم
الا ونجد فيها لحسان شعرا رغم أنه لم يشترك فى أى منها اشتراكا
فعليا وذلك اما فى هجاء المشركين أو مناقضتهم والرد عليهم أو فى
هجاء المنافقين وكشف أمرهم ، وهتك حجبهم ، أو مهاجمة اليهود
وفضح ما يكونون من حقد للرسول وللمسلمين ، وما يثيرون من
فتن وما يدبرون من مكائد ، واما فى مدح الرسول صلى الله عليه
وسلم وكبار صحابته والمسلمين ووصف بطولاتهم وتمجيد
جهادهم والفخر بانتصاراتهم ثم رثاء شهدائهم رضى الله عنهم
أجمعين . ولم يترك حسان حادثة الا وسجلها فى شعره أو موقفا
الا وعبر فيه عن رأى الرسول والمسلمين ، لذلك كثر استشهاد
كتاب سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بشعره حتى أننا يمكننا
أن نقول فى شىء من التعميم ان شعر حسان يؤرخ لحياة الرسول
والمسلمين من بعد الهجرة حتى وفاته صلى الله عليه وسلم .
ولقد كانت هذه الظاهرة أحد الأسباب التى جعلت الرواة
يضيفون الى حسان كثيرا مما لم ينظمه لمجرد أن شعره الحقيقى
يصور أحداث السيرة ويشارك فى التعبير عن عواطف المسلمين .
ولم يكن حسان وحده الذى يفعل ذلك وانما شاركه شاعران

آخران هما كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، غير أن حسان فاقهما في كثرة نظم ، وكثرة ما أجاد أيضا حتى علت منزلته ، واحتل من قلب الرسول المكانة الأولى بين الشعراء .

ويستطيع من يقلب صفحات السيرة أن يدرك حقيقة ما نقول ، فيقف عند كل غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ليستوثق مما نصف وليجد أن حسان قد غطى كل أحداث عصر الرسول بشعره فيها هو يمدح الرسول ويصف انتصار المسلمين في بدر ، ويسجل مقتل مشركي قريش وطرح جثثهم في بئر القليب :
فلاقيناهم منا بجمع

كأسد الغاب مردان وشيب

أمام محمد قد وازروه

على الأعداء في لفح الحروب

بأيديهم صوارم مرهفات

وكل مجرب خاطئ الكعوب (١)

بنو الأوس الغطارف وازرتها

بنو النجار في الدين الصليب (٢)

فغادرنا أبا جهل صريعا

وعتبه قد تركنا بالجيوب (٣)

(١) كل مجرب أى كل رمح تمرس بالحروب وخاطئ الكعوب
أى أن كعوبه غليظة صلبة .

(٢) صليب : متين .

(٣) الجيوب : الأرض الغليظة .

وشية قد تركنا في رجال

ذوى حسب اذا نسبوا حسب

يناديهم رسول الله لـ

قذفناهم كباكب في القلب (١)

الم تجدوا كلامي كان حقا

وأمر الله يأخذ بالقلوب

فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا

صدقت ، وكنت ذا رأى مصيب

وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم وقف عند القلب بعد أن

طرح المشركون فيه فقال : يا أهل القلب ، هل وجدتم ما وعدكم

ربكم حقا ؟ فاني قد وجدت ما وعدني ربي حقا . فقال أصحابه

عليه السلام : يا رسول الله : أتكلّم قوما موتى ! فقال لهم : لقد

علموا أن ما وعدهم ربهم حق ! صدق عليه السلام !

وفي بدر أيضا نظم حسان مناقضات يرد بها على شعراء

المشركين كما فعل في رده على ابن الزبيرى أو الأعشى بن زرارۃ

التيّمى حليف بنى نوفل بن عبد مناف ، فقد كان كلاهما يبكى

قتلى بدر ، ويتحسر على مقتل كبار رجالات قريش ومن هذه

المناقضات والقصائد :

ابك بكت عيناك ثم تبادرت

بدم تعل غروبها سجام

(١) كباكب : جمع كبكة وهى الجماعة من الناس ، والقلب

هو قلب بدر الذى قذف فيه من مثل من المشركين .

ومنها :

تبلت فؤادك في المنام خريدة
تسقى الضجيع بيارد بسام

ومنها :

لقد علمت قریش يوم بدر
غداة الأسر والقتل الشديد

ومنها :

يا حار قد عولت غير معول
عند الهياج وساعة الأحساب (١)

ومنها :

مستشعري حلق الماذى يقدمهم
جلد النحيزة ماض غير رعديد (٢)

ومنها :

خابت بنو أسد وآب عزيزهم
يوم القلب بسوءة وفضوح

ومنها :

ألا ليت شعري هل أتى أهل مكة
إبارتنا الكفار في ساعة العسر

(١) حار : ترخيم حارث .

(٢) استشعر الثوب : اذا لبس على الجسم دون حاجز .
الماذية : الدروع البيضاء . النحيزة : الطبيعة . وجلدها : قوياها .
ويقصد بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومنها :

تجى حكيما يوم بدر شـده

كنجاء مهر من بنات الأعوج

ومنها :

فما نخشى بحول الله قـوما

وان كثروا وأجمعت الزحوف

ومنها :

جمحت بنو جمح لشقوة جدهم

ان الذليل موكل بذليل

وكل هذه القصائد والمناقضات تسجل أخبار الغزوة ومن

قتل فيها ، كما تعبر عن عواطف كل من الفئتين المسلمين

والمشركين وان كانت قصائد المسلمين وحسان خاصة تسجل

الاتتصار وتفتخر به ، وتمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وتؤيد

رسالته .

وفي أحد يؤدي حسان دوره كما أداه في بدر فهو يرد على

المشركين الذين أخذتهم الحمية في هذه الغزوة بعد أن كتب لهم

فيها النصر ، وكانت مهمة حسان أشق من مهمته في بدر لهذا

السبب ولأنه يريد أن يقلل من نشوتهم بالنصر ، وأن يؤكد الغلبة

للمسلمين ، فهو يرد على سفيان بن حرب افتخاره بأبياته التي

أولها :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم

ولست لزور قتلته بمصيب (١)

كذلك يعيّر قريشا بأن أعطت لواءها لعبد حبشي يسمى
صؤاب وهو في كل ذلك يسجل المعركة بتفاصيلها وبقتلها
وشهداءها :

فخرتم باللواء وشر فخر

لواء حين رد الى صؤاب

جعلتم فخركم فيه بعبء

والأم من يطا عفر التراب

والواضح أن وصف حسان للمعركة — كما يظهر في شعره —
وصف شاعر قد حضر القتال وشاهد بنفسه كل تفاصيله ، وليس
وصف انسان أخبر ولم يره ، وهذا يدل على أن حسان كان يحضر
الغزوات وان لم يشترك فيها بسيفه ، ويظهر أنه كان ينتظر مع
النساء نظرا لكبر سنه ولعجزه عن القتال بسبب اصابته في أكله ،
فها هو يهجو عتبة بن أبي وقاص لأنه رمى رسول الله صلى الله عليه
وسلم في أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى
صلى الله عليه وسلم ، ويسجل في هجائه هذه الحادثة كأنه رآها
فيقول :

فأخزأك ربي يا غيب بن مالك

ولقأك قبل الموت إحدى الصواعق

(١) القروم . السيد .

بسطت يميننا للنبي تعمدا

فأدميت فاه ، قطعت بالبورق
وتتكرر الصورة فحسان يرد على المشركين ويمدح الرسول
ويفخر بالمسلمين ، ويؤدى دوره فى كل ذلك خير أداء فهو مراسل
حربى يسجل الأخبار وهو صحيفة يومية ينشر هذه الأخبار
ويلونها بما يتفق وهدف المسلمين .

ونجح حسان فى كل ذلك ، فشعره الذى يسجل به غزوات
الرسول — تصويره لما حدث يوم الرجيع ويوم بئر معونة وراثؤه
تاريخ هذه الغزوات ويفسر هذه الأحداث ويصور موقف
المسلمين والمشركون منها دون اغفال لأية تفاصيل ، وهو حين
يروى أخبار هذه الأحداث فى شعره ، فانما يعبر فيها ومن خلالها
عن وجهة نظر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين . ويسجل
لنا بطريقة غير مباشرة موقف المشركين وقريش خاصة من الدعوة
الاسلامية وصاحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومثال واضح لكل هذا — الى جانب تسجيله لكل غزوات
الرسول — تصويره لما حدث يوم الرجيع ويوم بئر معونة وراثؤه
لشهداء المسلمين فيهما ، وتحريضه بنى أبى براء الذى كان قد وعد
باجازة وفد شهداء بئر معونة على عامر بن الطفيل . ففى هذه
الآيات يحمس أبناء أبى براء على الانتقام من عامر بن الطفيل
ويسجل ما حدث فى هذا اليوم يقول :

بنى أم المؤمنين ألسم يرعكم
وأتم من ذوائب أهل نجد

تهكم عامر بأبى براء
ليخفره وما خطأ بعمد

ألا أبلغ ربيعة ذا المساعى
فما أحدثت في الحدثان بعدى

أبوك أبو الحروب أبو براء
وخالك ماجد حكم بن سعد

وكما نجح حسان في تسجيل أخبار غزوات الرسول للمسلمين،
كذلك نجح في تسجيل الأحداث المثيرة التي وقعت في المدينة ضد
المسلمين بسبب المنافقين واليهود، فهي هو يسجل مقتل كعب بن
الأشرف وسلام بن أبى الحقيق وذلك عندما يقول :

لله در عصابة لاقيتهم
يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف

يسرون بالبيض الخفاف اليكم
مرحاً كأسد في عرين معزف (١)

حتى أتوكم في محل بلادكم
فستوكم حتفاً ببيض قرقفه

مستصرين لنصر دين نبهم
مستصرين لكل أمر مجحف

(١) معزف : العزيز : الأكمة .

ثم يسجل موقف سعد بن معاذ من يهود بنى قريظة وحكمه
فيهم في قصائد عدة منها :

لقد سجت من دمع عيني عبرة
وحق لعيني أن تفيض على سعد
ومنها :

ألا يا لقومي هل لما حم دافع
وهل ما مضى من صالح العيش راجع
ويسجل ما أوقعه المسلمون ببني قريظة بعد غزوة الخندق في
قصائد منها :

لقد لقيت قريظة ما سآها
وما وجدت لذل من نصير
ومنها :

لقد لقيت قريظة ما سآها
وحل بحصنها ذل ذليل
ومنها :

تفاقد معشر نصرنا قریشا

وليس لهم ببلدتهم نصير
ثم يأتي بعد ذلك الحدث الأكبر وهو الذي استعد له كل
شعراء المسلمين حتى لا تفوتهم فرصة المشاركة فيه وأعنى به
فتح مكة .

ولقد شارك حسان بشعره منذ أول هذه الغزوة والاستعداد لها
فقد أخذ يحرض الأنصار على الفتح ويذكرهم بما فعلت بهم قریش

عنانى ولم أشهد يبطحاء مكة
رجال بنى كعب تحز رقابها
بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم
وقتلى كثير لم تجن ثيابها
ألا ليت شعري هل تنالن نصرتي
سهيل بن عمرو وخزها وعقابها
الى أن يقول :

ولا تجزعوا منها فان سيوفنا
لها وقعة بالموت يفتح بابها
ثم يتم فتح مكة ويدخل الجيش الاسلامى وعلى رأسه قائده
محمد صلى الله عليه وسلم فيعلن حسان انتصار الاسلام وانتصار
الأنصار بقصيدته التى عرف بها ومطلعها :
عفت ذات الأصابع فالجواء

الى عذراء منزلها خلاء
وفيهما تلك المقدمة التى استنكرها المسلمون بسبب ما ذكر
فيها من وصفه للخمر وشربها ، ولكن علل ذلك النقاد بأنها من
نظمه فى الجاهلية وأكملها فى الاسلام . ومن هذه القصيدة يقول
حسان :

عدمنا خيلنا ان لم تروها
تثير النقع موعدها كداء
ينازعن الأسنة مصغيات
على أكتافها الأسل الظماء

نظل جيادنا متمطرات

يلطمهن بالخمير النساء

فاما تعرضوا عنا اعتمرنا

وكان الفتح وانكشف الغطاء

وتتوالى الأحداث وحسان يشارك فيها بشعره كما شارك قبل ذلك وهو في كل مرة يسجل الحدث ويوضح رأى المسلمين فيه . ثم يأتي يوم يقبض الرسول فيه وتصعد روحه الى الملأ الأعلى فييكبه حسان لا كما ييكبه كل المسلمين ، ولكن كما ييكبه شاعر رافق الرسول في أهم فترات حياته ، وشارك في كل حدث مر به صلى الله عليه وسلم بقلبه ولسانه ، وأحس بمشاعر المسلمين وعواطفهم تجاهه ، فكان بكاؤه تسجيلا لهذا الحادث الجلل ، وتعبيرا عن أحزان أمة خلقها الرسول صلى الله عليه وسلم برسائلته وارشاده . وكانت أهم قصيدة رثى بها حسان الرسول صلى الله عليه وسلم تلك التي مطلعها :

بطيبة رسم للرسول ومعهـد

منير وقد تغفو الرسوم وتهمد

والآن ما هي المعانى التى صور بها حسان مشاركته لحياة الرسول والمسلمين وكيف كان ذلك ؟ وهل استطاع أن يطور فنه عن الصورة التى رأيناها عليه فى الجاهلية ؟ هذا ما نود أن نجيب عليه .

الفصل الثالث

شعر حسان الإلهامى

لم تتوقف طبيعة حسان الفنية عن خلق الشعر ، وخاصة أن العوامل التى كانت تدفع الجاهلى الى نظمه استمرت تدفعه بعد أن أسلم وان اختلفت أهدافها . فالقتال ناشب بين المسلمين والمشرىين كما كان ناشبا بين القبائل الجاهلية ، والأحداث تتوالى بسرعة لا تترك مجالا للفكر كى يتأمل ، وانما للعاطفة كى تلتهب . ولقد عاش حسان الأحداث كما رأينا وانفعل بها ، وشارك فى التعبير عنها . فكان لابد أن ننظر هل اختلف تعبيره فيها عن تعبيره فى مشابهاها فى الجاهلية .

أ - حسان والمقدمات الطالفة والفزلية :

لا يقوم حسان فى هذا الموضوع معانى أو صورا جديدة ، بل هى نفس الصور الجاهلية القديمة ، وان كان قد قلل عدد أبيات مقطوعاتها ومثل ذلك قصيدته فى مدح الأنصار وفيها يقول: أهاجك بالبيداء رسم المنازل

نعم ! قد عفاها كل أسحم هاطل

وجرت عليها الرامسات ذبولها

فلم يبق منها غير أشعث مائل

ديار التي راق الفؤاد دلالتها

وعز علينا أن تجود بنائل

ويمتاز حسان في أنه ماهر في ربط موضوع مقدمته بموضوع

القصيدة الرئيسى ، فقليلا ما نحس بالفجوة بين الموضوعين على

عكس ما نجد عند كثير من شعراء عصره ، فنراه مثلا في مقدمة

القصيدة التي يرثي بها شهداء أحد يقول :

تأوينى ليل يثرب أعسر

وهم اذا ما نوم الناس مسهر (١)

لذكرى حبيب هيجت ثم عبرة

سفوحا وأسباب البكاء التذكر

بلاء وفقدان الحبيب بليّة

وكم من كريم يتلى ثم يصبر

رأيت خيار المؤمنين تواردوا

شعوب وقد خلفت فيمن يؤخر

وقد يبدأ قصيدته ثم سرعان ما يضيق بالمقدمة لأن الموضوع

الرئيسى يأخذ عليه نفسه ، ويشغله عن غيره فيخرج منها بذلك

التعبير المألوف عند كثير من شعراء عصره وهو : دع ذا ..

يقول :

زادت هموم فماء العين ينحدر

سحا اذا أغرقته عبرة درر

(١) تأوينى : عاودنى .

وجدنا بشعثناء اذ شعثناء بهكنة

هيفاء لا دنس فيها ولا خور (١)

دع عنك شعثناء اذ كانت مودتها

نزرا وشر وصال الواصل النزر

وأنت الرسول فقل يا خير مؤتمن

للمؤمنين اذا ما عدل البشر

وأهم ما يلاحظ على معظم شعر حسان الاسلامى أنه شعر مقطوعات وليس شعر قصائد وهذا النوع لا يتطلب مقدمات لأن ظروفه تدفع الشاعر الى موضوعه مباشرة دون تقديم ، وكانت الحياة حول حسان وبين الرسول والمسلمين تقتضى منه أن يكون سريعا فى مقاومة المشركين بفنه حتى يطل كيدهم ، ويرد غوائلهم ، كذلك كانت الأحداث تجرى بسرعة لا تترك للشاعر فرصة أن يتأمل ويفكر لينظم وانما تدفعه دفعا لأن يلاحقها بنفس سرعتها ، والمطلع على مخطوطات ديوان حسان يلحظ كل ذلك وقد أضيف الى هذه العوامل عامل آخر وهو أن مناقضة حسان لشعراء المشركين كانت تستغرق معظم فنه ، وان من طبيعة هذه المناقضة — كما سنرى فيما بعد — أن توجه الشاعر الى موضوعه مباشرة .

(١) البهكنة : الجارية الخفيفة الروح الجميلة الظبية الرائحة .

والشباب البهكن : الغض

ب - حسان ووصف الخمر :

عرفنا — من قبل — أن الخمر احتلت من حياة حسان الجاهلية ومن شعره فيها مكانا مرموقا وكانت تمثل مظهرًا من مظاهر فتوته، وموضوعا من موضوعاته في فخره ومدحه فكيف كان أمرها معه في الاسلام .

لا نجد أخبارا حتى عهد عمر بن الخطاب تشير الى أن حسان كان يجلس في مجالس الخمر ، بل ان هناك أخبارا بعد ذلك تحدثنا أنه كان يحضر مجالس الغناء ولكنها لا تشير صراحة الى أنه كان يشرب فيها الخمر وكان يحدث أن يقول لمن حضرة في مجلس منها وكان معهم ولده عبد الرحمن « وأنتم اليوم مسلمون تشربون هذا النبيذ من التمر والفضيخ من الزهر ، فلا يشرب أحدكم ثلاثة أقداح حتى يصاحب صاحبه ويفارقها وتضرب فيه كما تضرب غرائب الابل فلا تنتهون » .

ونجد في قصيدة يمدح بها الرسول مقدمة طلية طويلة تنتهى بوصف لمجلس من خمر يشارك فيه يقول :

عفت ذات الأصابع فالجواء

الى عذراء منزلها خلاء

ديار من بنى الحسحاس قفر

تغفيها الروامس والسماء

وكانت لا يزال بهـا أنيس

خلال مروجها نعم وشاء

فدع هذا ولكن ما لطيف
 يؤرقنى اذا ذهب العشاء
 لشعنا التى قد تيمتـه
 فليس لقلبه منها شفاء
 كأن خبيئة من بيت رأس
 يكون مزاجها غسل وماء (١)
 على أنيابها أو طعم غص
 من التفاح هصره الجناء (٢)
 اذا ما الأشربات ذكرن يوما
 فهن لطيب الراح الفداء
 نوليها الملامة ان المـنا
 اذا ما كان مغث أو لحاء (٣)
 وشربها فتتركنا ملوكا
 وأسدا ما ينهنها اللقاء (٤)
 وقد علل القدماء هذه الظاهرة فقالوا ان هذا الجزء من
 القصيدة كان قد نظمه حسان فى الجاهلية فلما جاء الاسلام وأراد

(١) خبيئة : أى مصونة مضمون بها لنفاستها . بيت رأس :
 موضع بالأردن مشهور بالخمير . ويكون هنا ملغاة .
 (٢) على أنيابها خبر كأن فى البيت السالف وقوله « أو طعم
 غص » عطف على سيئة وقوله « هصره الجناء » أى اماله أى أن
 التفاح قد نضج .
 (٣) المـنا : أى أتينا ما نلام عليه ، مغث (الشر والقتال)
 اللحاء السباب .
 (٤) ينهنها : أى يكفنا .

أن ينظم قصيدة في مدح الرسول أكمل هذه المقدمة بمدح للرسول صلى الله عليه وسلم ، وجاء قولهم هذا تفسيرا للخبر الذي رواه مصعب الزبيري حين قال : هجم حسان على فتية من قومه يشربون الخمر فميرّهم في ذلك ، فقالوا : يا أبا الوليد ما أخذنا هذا الا منك وانا لنهم بتركها ثم يثبطنا عن ذلك قولك :
ونشربها فتركنا **مسلوكا**

وأسدا ما ينهنهنا اللقاء
فقال حسان : هذا شيء قلته في الجاهلية ، والله ما شربتها منذ أسلمت . ورأى القدماء ضعيف ، اذ لم يكن صعبا على حسان أن يبدأ في نظم قصيدة جديدة وخاصة أنها في مدح الرسول وفي استعداد ليوم عظيم وهو يوم فتح مكة ، غير أن القدماء استعظموا الأمر ولم يجدوا سوى تعليلهم هذا ، وقد يقال ان هذه القصيدة ربما نظمها حسان قبل تحريم الاسلام للخمر تحريما نهائيا ، وخاصة أننا نجد في رواية لابن سلام أن هذه القصيدة أول ما نظم حسان في الاسلام ، أما اذا كانت قد نظمت في وقت متأخر فلا شك أن ذكر الخمر فيها تقليد للفن الجاهلي القديم . وعلى كل ، فقد اختفت الخمرات في شعره الاسلامي رغم أنها كانت من موضوعات شعره الرئيسية في الجاهلية .

ج - حسان بين المدح والفخر :

لقد شغل موضوعا المدح والفخر كل شعر حسان في الجاهلية ، واستغرقا كل جهده الفني منتقلا بهما بين قومه من الخزرج وأقربائه من العساسنة فاذا نظرنا الى هذين الموضوعين في الاسلام

فلن نجد فرقا كبيرا لا في نسبة استغراقها لمعظم شعره الاسلامي
أو في طريقة معالجته لهما ، فالموضوعان مرتبطان ببعضهما عنده ،
فالقصيدة التي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم يتغنى فيها
بمؤازرة الأنصار له ، بل انه في بعض هذه القصائد يفخر فيها
بمعاونة بنى النجار خاصة للرسول والمسلمين يقول :

منعنا رسول الله اذ حل وسطنا
على كل باغ من معد وراغم
منعناه لما حل بين بيوتنا
بأسيافنا من كل عاد وظالم
بحى حريد عزه وثرأوه
بجاية الجولان وسط الأعاجم^(١)
هل المجد الا السؤدد العود والندی
وجاه الملوك واحتمال العظائم^(٢)
ومن أشهر ما مدح به حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قصيدتان الأولى همزية وهى التى مطلعها :
عفت ذات الأصابع فالجواء
الى عذراء منزلها خلاء

(١) حريد : أى منفرد عن الجماعة لا يخالطهم ارتحاله وحلوله .
جاية الجولان موضع بالشام .
(٢) العود : أى القديم الذى يتكرر مع الزمان .

والأخرى عينية ومطلعها :

ان الذوائب من فھر واخوتھم

قد بینوا سنة للناس تتبع

وتظهر المعانی الاسلامیة فی شعر حسان فی هذه الفترة ، فاذا

نظرنا مثلاً فی قصیدته الأولى نجده یقول :

وجبریل رسول الله فینا

وروح القدس لیس له کفاء

ویقول فی قصیدة أخرى فی غزوة الخندق :

وغدوا علینا قادرین بأیدھم

ردوا بغیظھم علی الأعقاب (١)

بھوب معصنة تفرق جمعھم

وجنود ربك سید الأرباب

وهذا المعنی ما جاء فی قوله عز وجل « یا ایھا الذین آمنوا

اذکروا نعمة الله علیکم اذ جاءتکم جنود فأرسلنا علیھم ریحاً

وجنوداً لم تروھا » .

ان شعر حسان تسجیل حی لحیة الرسول وغزواته ، وقد

اعتمد علیہ شراح السیرة فی تفسیر بعض ما غمض من تاریخ هذه

فی مقدمته لترجمة guillcume الفترة ، واذا كان الأستاذ جیوم

سیرة ابن هشام یشیر الی أنه ینبغی الاهتمام بمن ذکر فیھا من

شعراء وما روى لهم من شعر وخاصة حسان ، فاننا نقول ان

القدماء اهتموا بهذا الشعر کوثیقة تاریخیة ودينیة مما سبب

(١) الأید : القوة .

مشاكل خطيرة في روايته والنظر اليه وهو ما حاولنا أن نشير اليه
إشارة سريعة في مقدمة هذا الكتاب .

مدح حسان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعان كثيرة منها
الجاهلي القديم ومنها الاسلامي المستحدث ، وقد اتخذ مدحه
للرسول صفة الفخر بالمسلمين جميعا وخاصة الأنصار والرد على
المشركين ومهاجرتهم ، وكان حسان سلاحا خطيرا في أيدي
المسلمين لا يقل عن أسلحتهم الحربية الأخرى فهو صحيفتهم
اليومية وهو لسان دعايتهم . وقد قدر الرسول هذا كله فكان
يدعو له قائلا « اللهم أيده بروح القدس » ولقد تطورت هذه
الفكرة عند بعض المسلمين حتى قالوا ان جبريل كان يمدّه بأيات
تساعده في نظم قصائده !

والمعاني الجاهلية التي مدح حسان بها الرسول والمسلمين هي
القيم التي يجلها العرب ويحترمونها كما استمر يجلها الاسلام
ويحترمها مثل الدفاع عن الجار والذمار والكرم والشجاعة ونجدة
الضعيف واحترام العهود وكلها معان ردها حسان في شعره
الاسلامي ، وامتنع حسان عن التمدح بشرب الخمر واللعب
بالميسر وذكر الأيام الجاهلية الا ما لا يثير منها الفتنة بين المسلمين
ويشيرها بين المشركين .

ها هو يفتخر بانتصار المسلمين في بدر ، فيردد صورا جاهلية
وان كانت بعض المعاني الاسلامية تتخللها ، وتظهر فيها براعة

حسان في الربط بين المقدمة الغزلية وبين الموضوع الرئيسي .
يقول :

يا من لعاذلة تلوم سفاهة
ولقد عصيت الى الهوى لوامى
بكرت على بسحرة بعد الكرى
وتقارب من حادث الأيام
زعمت بأن المرء يكرب يومه
عدم لمعتكر من الاصرام (١)
ان كنت كاذبة الذى حدثتنى
فنجوت منجى الحارث بن هشام (٢)
ترك الأجبة أن يقاتل دونهم
ونجا برأس طمرة ولجام
جرداء تمزق في الغبار كأنها
سرحان غاب في ظلال غمام (٣)

(١) يكرب : يحزن من الكرب ، والمعتكر الابل التى ترجع
فى عدد غفير فلا يمكن عدها لكثرتها ، والاصرام جمع صرم وصرم
جمع صرمة وهى القطعة من الابل ، ولعل يكرب هنا معناها يقرب
يتكون المعنى : زعمت أن الرجل يقرب يومه أى أجله الفقير ،
تأمره بعدم الاسراف .

(٢) وكان قد فر من المعركة فى بدر .

(٣) تمزق : تشب ، السرحان : الذئب .

تذر العناجيج الجياد بقفرة

مر الذمول بمحصد ورجام (١)

ملأت به الفرجين فارمدت به

وثوى أحبته بشر مقام (٢)

وبنو آييه ورهطه في معرك

نصر الاله به ذوى الاسلام

طحتهم — والله ينفذ أمره —

حرب يشب سعيها بضرام

لولا الاله وجريه لتركه

جزر السباع ودسنه بحوام (٣)

وفي أحد نراه يفخر بماضيه الجاهلى حين يهاجى ابن الزبعرى

وكأنه يوم من أيام الجاهلية ، لا يوم من أيام الاسلام فيقول :

ان خالى خطيب جايية الجو

لان عند النعمان حين يقوم

وأبى فى سميحة القائل الفا

صل يوم التقت عليه الخصوم

وأنا الصقر عند باب ابن سلمى

يوم نعمان فى الكبول مقيم

(١) تذر : تدع والعناجيج جمع عنجوج وهو النجيب من

الخيـل .

(٢) أرمدت : أسرعت .

(٣) الحوامى : ميامن الحافر ومياسره .

وأبى ووافد أطلقا لى
 ثم رحنا وقفهم محطوم
 ورهنت اليدين عنهم جميعا
 كل كف فيها جز مقسوم (١)
 وسطت نسبتي الذوائب منهم
 كل دار فيها أب لى عظيم (٢)
 وبنفس المعانى والصور يقول فى أحد أيضا :
 فان تسألى الأقوام عنى فأنى
 الى متحد تنمى اليه المحاتد
 أنا الزائر الصقر ابن سلمى وعنده
 أبى ونعمان وعمر ووافد
 فأورثنا مجدا ومن يجن مثلها
 بحيث اجتناها ينقلب وهو حامد
 وجدى خطيب الناس يوم سميحة
 وعمى ابن هند مطعم الطير خالد
 ثم يفخر باستشهاد أخيه أوس بن ثابت فى أحد ، كما يفخر
 بحفظه لحق الجوار لأن حفظ الجوار أمانة فى عنق الجاهلى الحق :
 ومنا قتيل الشعب أوس بن ثابت
 شهيدا وأسنى الذكر منه المشاهد

(١) رهنت اليدين منهم أى ضمنتهم ، وجز فصلها جزء ، نقل
 حركة الهمزة ثم حذفها .

(٢) وسطت : أى توسطت ، والذوائب : الأعلى أى الاشراف .

ومن جده الأدنى أبى وابن أمه
لأم أبى ذاك الشهيد المجاهد
وفى كل دار ربة خزرجية
وأوسية لى من ذراهن والد (١)
فما أحد منا بمهد لجاره
أذاة ولا مزر به وهو عابد
لأنا نرى حق الجوار أمانة
ويحفظه منا الكريم المعاهد
ونقف قليلا عند مدحة مدح بها حسان رسول الله صلى الله
عليه وسلم أمام وفد بنى تميم ومعهم شاعرهم الزبرقان بن بدر
لتكامل عناصرها ، فقد لاقت استحسانا كبيرا من الرواة القدماء
والنقاد المحدثين .

وأول ما يمدح به حسان الرسول هو هذا الدين الجديد ،
ولم يستطع حسان أن يتخيل الرسول خارج قبيلته ، وأنه أصبح
فردا لا يخضع للتأثير القبلى وكأنه يشعر أن وفد بنى تميم سوف
لا ينظر الى شعره بعين الاعتبار اذا لم يمدح الرسول فى قبيلته ،
فهذا هو التقليد المألوف . يقول :

(١) دار ربة : أى ضخمة .

ان الذوائب من فھر واخوتھم
قد بینوا سنة للناس تتبع
یرضی بها كل من كانت سریرته

تقوى الاله وبالأمر الذی شرعوا

ثم ینتقل بعد هذا الى قدرتهم على القتال وانتصارهم فی
الحروب ، وحسان یقرن بین قبيلة الرسول و بین الأنصار فی هذه
الصفة . ورغم أن جزءا کبیرا من قبيلة الرسول ما زال مشرکا
الا أنه یتجاهل هذه الحقيقة لأن التقليد الجاهلی یرى أن القوة
بالقبيلة لا بمن ینزل بین أفرادها ویستجیر بها . یقول :

قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع فی أشیاعهم تفعوا
سجیة تلك منهم غیر محدثة
ان الخلائق فاعلم شرها البدع

لا یرقع الناس ما أوھت أكفھم
عند الدفاع ولا یوھون ما رقعوا

ان كان فی الناس سباقون بعدهم
فكل سبق لأدنی سبقهم تبع
ثم یرض لفضائلهم التی تنفق والقیم الجاهلیة وان كان یدكر
أن الوحي قد أشاد ببعضها :

ولا یضنون عن جار بفضلهم
ولا یدنسهم فی مطمع طبع

لا يجهلون وان حاولت جهلهم
 في فضل أحلامهم عن ذاك متسع
 أغفة ذكرت في الوحي غفتهم
 لا يطبعون ولا يرديهم الطمع
 كم من موال لهم نالوا كرامته
 ومن عدو عليهم جاهد جدعوا
 خذ منهم ما أتوا عفوا اذا غضبوا
 ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
 فان في حربهم — فاترك عداوتهم —
 سما يشن عليه الصاب والسلع
 لا فخر ان هم أصابوا من عدوهم
 وان أصيبوا فلا خور ولا جزع
 وأخيرا لا ينسى حسان الأنصار ولا التأييد الذي منحوه
 للرسول فيقول :

كأنهم في الوغى والموت مكنتع
 أسد بيثة في أرساغها فدع (١)
 اعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم
 فما وني نصرهم عنه وما نزعوا
 ان قال سيروا أجدوا السير جهدهم
 أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا

(١) بيثة : موضع ينسب الى الأسود . الفدع : عوج وميل
 في المفاصل .

ما زال سيرهم حتى استقاد لهم
 أهل الصليب ومن كانت له البيع
 نسمو اذا الحرب فالتنا مخالبا
 اذا الزعانف من أظفارها خشعوا
 اذا نصبنا لقوم لا ندب لهم
 كما يدب الى الوحشية الذرع
 أكرم بقوم رسول الله قائدهم
 اذا تفرقت الأهواء والشيع
 أهدى لهم مدحتى قلب يوازره
 فيما يجب لسان حائك صنع
 فانهم أفضل الأحياء كلهم
 ان جد بالناس جد القول أو شمعوا

د - حسان وفن الهجاء •

كان الهجاء فى شعر حسان الجاهلى قليلا ، وكان متصلا
 بنعمة الفخر فى معارضاته لقيس بن الخطيم ، ومعظمه يدور حول
 الجبن والهرب من المعركة ، أو الهزيمة والذلة التى تتبعها ، ولم
 يفحش حسان فى هذا الهجاء ، وانما هو هجاء الأبطال للأبطال
 كأن يقول فى يوم الدرك (١) :

(١) قال ابن الكلبي : كان بين بنى النجار وبنى خطمة
 اختلاف فى حليف لبنى بياضة من بنى عيس هو الشاعر عروة
 بن الورد ، فالتقوا بالدرك فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت القتلى
 بينهم ورئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضى وكان
 ظفر ذلك اليوم لهم .

وأقلت يوم الروع أوس بن خالد
يمج دما كالرغث مختضب النحر
فان تنج منها يا جؤى فانها
رحاب كجوف الغار مظلمة القعر
أو يقول :

ويثرب تعلم أن النيبـــــــــــــــــ
ت عند الهزاهز ذلائها
الى أن يقول :

فلا تفخرن والتمس ملجأ
فقد عاد للأوس أديانها
ويقول في حرب بعثت هاجيا الأوس :
دع ذا وعد القريض في نفر
ما لهم غير سبتي شرف
كيف تعاطون مجدنا سفها
وأنتم دعوة لها وكف (١)
الى أن يقول :

وكم قتلنا من رائس لكم
في فيلق يجتدى له التلف
ومن لئيم عبد يحالفكم
ليست له رتبة ولا أنف

(١) الدعوة : أن ينتسب الانسان الى غير أبيه أو عشيرته
الوكف : العيب والنقص .

ويظهر أن والد حسان كان رجلا ساخرا ذا ميل للهجاء ، فقد حدث أن أسرته مزينة فعرض عليهم القداء فقالوا : لا تفاديك الا بتيس . ومزينة تسب بالتيوس لأنها تقتنيها وتربيتها فأبى وأبوا فلما طال مكثه فيهم أرسل الى قومه أن أعطوهم أخاهم وخذوا أخاكم .

ويظهر أن حسان في الجاهلية كان يستعدي الشعراء الآخرين على خصومه ، أما في الاسلام فقد امتاز حسان في فن الهجاء حتى خاف المشركون لسانه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول « لهذا أشد عليهم من وقع النبل » وقال أبو عبيدة : كان المخبل القريعي أهجى العرب . بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

انما هو عذاب يصبه الله على من يشاء من عباده ، ثم كان بعده حسان بن ثابت رضى الله عنه ثم الحطيئة والفرزدق وجريرو والأخطل ، هؤلاء الستة الغاية في الهجاء وفي غيره ، لم يكن في الجاهلية ولا في الاسلام لهم نظير . ولم يكن حسان وحده الذى يهجو المشركين ويدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن كان هناك شاعران آخران هما عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وقد تخصص حسان وكعب في الرد على شعراء المشركين بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر وهجائهم بالمثالب ، أما عبد الله ابن رواحة فكان يعيرهم بالكفر ، فكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم وهم مشركون ، فلما أسلموا كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان : يا حسان
اذهب الى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم
أهجهم وجبريل معك . فلما أنشدت قريش شعر حسان قالت :
هذا الشتم ما غاب عن ابن أبى قحافة ، يعنون أبا بكر .

والآن ، كيف كان حسان يهجو قريشا بأنسابها وأيامها ورسول
الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخاصة بعد ما أدرك النبى دقة
الموقف ، فقد هجا شاعر من قريش الرسول ، وأراد حسان أن
يرد عليه فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم منها ، « كيف
وأنا منه وهو منى » فقال حسان : والله لأسلنك منه كما تسل
الشعرة من العجين !

ان طريقة حسان فى هجاء القريشيين هو أن ينفى نسبهم من
قريش وينسبهم الى فرع القبيلة البعيد ويهجوهم من خلاله
أو ينسبهم الى قبيلة أخرى . يقول مثلاً فى هجاء المغيرة :
إذا نسبت يوماً قريش نقتكم
وان تنتسب شجع فأنت نسيبها

وان التى ألقنتك من تحت رجلها
وليدا المهجان الغذاء خبؤها
وأملك من قصر جباشة أمها

لسمراء فهم أسن البول طيها
فهو ينفى المغيرة من قريش وينسبها الى شجع بطن من كنانة
وهم بنو شجع بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة

وبذلك نجح حسان في هجاء القرشيين دون أن يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مثال آخر يوضح هذه الطريقة التي كان يهجو بها القرشيين . يقول في هجاء بنى عوف بن عبد عوف :

وسائل قريشا وأحلافها

متى كان عوف لها ينسب

أفيمى مضى نسب ثابت

فيعلم أم دعوة تكذب

فان قريشا ستنتفيكم

الى نسب غيره أثقب

الى جذم قين لئيم العرو

ق عرقوب والده أصهب

الى تغلب انهم شرجيل

فليس لكم غيرهم مذهب

وقد كان عهدى بها لم تنل

سـنـيا ولا شرفا تغلب

فهذا حسان ينفى بنى عوف من انتسابهم لقريش وينسبهم الى تغلب ، بل انه ينسبهم الى غير العرب لأن العرب يصفون الروم بأنهم صهب السبال . والصهبه الحمره .

وقد نفى أحد علماء القرن الثالث وهو العدوى أن تكون هذه الأبيات لحسان دفاعا عن بنى عوف وحجته في ذلك أن نسب عبد الرحمن بن عوف صحيح لا غمز فيه وهذا الدليل لا يكفى

لنفى هذا الشعر لأن الشاعر — كما رأينا — يتحایل ويبحث في نسب بنى عوف عن نقطة ضعف يتشبث بها فان لم يجد ادعى ما يريد حتى يصيب الخصم في أهم ما يمس العربى وهو نسبه . ورغم أننا نستطيع أن نثبت أن هذه الأبيات حقيقة ليست لحسان الا أن هذا يدل على أن الذين يضعون الشعر يعرفون طريقة حسان في هجاء القرشيين وهى انه ينفى نسبهم من قبيلة الرسول وينسبهم الى بطون القبيلة البعيدة أو الى قبائل أخرى لهم بها نسب وبذلك يحقق حسان قوله للرسول عليه السلام سأسلك منهم كما تسلك الشعرة من العجين !

وطريقة أخرى اتخذها حسان في هجاء مشركى قريش بالأنساب وهى أنه بعد أن ينفيهم من نسبتهم الى آبائهم ينسبهم الى أمهاتهم ويقذع فى هجائهم . يقول فى هجاء الوليد بن المغيرة . ان التى ألقاك من تحت رجلها

وليدا لمجهال العشى خبواب

ليالى يدعى ديسما بابن صقعب

لما ضم زوج الكلبتين ضروب

فمالك من كعب حصاة تعدها

وان قلت من شجع فانت كذوب

ولكن قينا حمم الكير أنفه

لئيم المحيا للئام ربيب

اذا حصلت كعب نموا لأبيهم

فطابوا وان تنسب فثم تخب

فما لك في الركنين حق حجابة
ولا لك في صهر النبي نصيب
ويقول في مخزومة بن المطلب وأبي صيفى بن هاشم بن عبد مناف
هاجيا لهما بأمهما :

إذا ذكرت عقيلة بالمخازى
تقنع من مخازيها اللئام
أبو صيفى الذى قد كان منها
ومخزومة الدعى المستهام
إذا شتموا بأهمهم تولوا
سراعا ما يبين لهم كلام
ويقول في هجاء أبى سفيان هاجيا له بالطريقة الأولى وهى
نفيه من قریش :

لعمرك ان الك من قریش
كال السقب من رأل النعام (١)
دائك اذ تمت الى قریش
كذات البوجائلة المرام
وانك اذ تمت الى قریش
كما نيط السرائح بالخدام
فلا تفخر بقوم لست منهم
ولا تك كاللئام بنى هشام

(١) الال : الأصل .

ويظهر الأقدع في الهجاء في شعر حسان عندما يهجو شعراء
المشركين أو يهجو المشركين أنفسهم ومن أمثلة هذا الفحش
الصارخ قوله في هجاء هند بنت عتبة .

أشرت لكاع وكان عادتها

لؤم اذا أشرت مع الكفر
وهو في هجائه يذكر العورات الجنسية ويهاجم بالصاق
الفحش بأصحابها مما يصعب علينا أن نذكر شواهد من هذا الشعر .
وربما كان أخف ما هجا به حسان أبا سفيان بن الحارث :

أجمعت أنك أنت الأم من مشى

في فحش مومسة وزهو غراب
وكذاك ورثك الأوائل انهم

ذهبوا وصرت بخزية وعذاب
فورث والدك الخيانة والخنا

واللؤم عند تذاكر الأحساب

وقد استغل حسان الأخبار التي تشين الأفراد في هجائهم بها ،
كما فعل في هجائه لصفوان بن أمية ، وكان أبوه — أمية —
قد تزوج أمة لمعمر بن حبيب على أنها ابنته ، فولدت منه صفوان ،
فلما عرف الحقيقة طلقها ، فزوجها معمر مولى حبشيا يقال له
الحنبل بن مليك فولدت له عبد الرحمن وكلدة ابني حنبل فكانا
أخوي صفوان لأمه فقال حسان يهجو صفوان في أمه :

من مبلغ صفوان أن عجوزه

أمة لجاره معمر بن حبيب

أمة يقال من البراجم أصلها

نسب من الأنساب غير قريب

ويأتى بعد ذلك بيت قد أفحش فيه .

وهكذا كان حسان قاسيا في هجائه وخاصة اذا تعرض

للأنساب فانه يقدح فيها والنسب عند العربى أهم ما يحرص

عليه ويدافع عنه ، فكان هجاء المشركين من خلاله أشد عليهم من

وقع النبل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد شابت السخرية المرة هجاء حسان ، وهى سخرية تضحك

الآخرين وتؤلم من تلتصق به كما فعل بجذام عندما قال :

لعمري أبى سمية ما أبالى

أنب التيس أم نطقت جذام

إذا ما شاتهم ولدت تنادوا

أجدى تحت شاتك أم غلام

فالهجاء هنا ليس سبا أو مسا للأنساب ، أو تقطيعا للأعراض

ولكن صورة ساخرة لجذام ليس لها من مدلول أكثر من أن

يجعل من يستمع اليها يضحك من سخريته بهم .

هـ - حسان والرتاء :

لأنجد فى ديوان حسان شعرا فى الرثاء قبل الاسلام وانما

نجد كل قصائده فى الرثاء اسلامية .

فاذا نظرنا فى رثائه للرسول صلى الله عليه وسلم فسنجد أن

فى ديوانه أربع قصائد فى رثائه ، اثنتان منها مصنوعتان بنص

صريح من العدوى اذ يقول : ليست في كتاب أبي عمرو ولا رواها
ابن الاعرابي وأحسبها مصنوعة . أولاهما :

نب المساكين ان الخير فارقههم
مع الرسول تولى منهم سحرا
وثانيتها :

يا عين جودى بدمع منك اسبال

ولا تملن من سح واعوال
أما القصيدتان الأخريان فهما ضعيفتا النسيج ، ضللتا العاطفة
ليس فيهما ذلك الجزع أو الحزن فضلا عن التأثير الخفيف بموت
رجل ليس كغيره من الرجال وانما نبى ورسول غير المجتمع
الحجازى دينا وتقاليد وتنظيما !
وهاتان القصيدتان هما :

آليت حلقة بر غير ذى دخل

منى ألية بر غير افناد
ما بال عيني لا تنام كأنما

كحلت ماقيها بكحل الاثمد

ونستطيع أن نقول اننا بانكارنا نسبة هاتين القصيدتين
لحسان فلن نجد له شعرا آخر في رثاء الرسول . فهل نقول انه لم
يرث نبيه الذى مدحه ودافع عنه بالشعر طول حياته ؟ انه احتمال
بعيد ! وخاصة أن ذلك يشير الأقاويل حول حبه للرسول وللدين
الجديد . والاحتمال الآخر أن شعر حسان في رثاء الرسول صلى
الله عليه وسلم قد ضاع ولم يصل إلينا بدليل أننا نجد في مغازى

ابن اسحاق قصيدة لم يروها رواة الديوان ورواها أبو زيد
الأنصارى — وهو الراوى الثقة — وهى تلك التى مطلعها :
بطيبة رسم للرسول ومعهد

منير وقد تغفو الرسوم وتهمد

وقارىء شعر حسان لا يجد خيرا من هذه القصيدة فى رثائه
وفى تعديد صفاته صلى الله عليه وسلم ، بل ربما نعتبرها من
أحسن ما نظم فى الاسلام — اذا حذفنا بعض أبياتها الركيكة—
وذلك لتغلغل الروح الاسلامية فيها مع احتفاظها بقوة السبك
وجزالة التركيب . ولن نجد خيرا من تسجيلها هنا كاملة لتصور
نفسها بنفسها .

بطيبة رسم للرسوم ومعهد

منير وقد تغفو الرسوم وتهمد

ولا تمتحى الآيات من دار حرمة

بها منبر الهادى الذى كان يصعد

وواضح آثار وبقى معالم

وربع له فيه مصلى ومسجد

بها حجرات كان ينزل وسطها

من الله نور يستضاء ويوقد

معارف لم تطمس على العهد آيها

أتاها البلى فالآى منها تجدد

عرفت بها رسم الرسول وعهده
وقبرا بها واراها في التراب ملحد (١)
ظلمت بها أبكى الرسول فأسعدت
عيون ومثلاها من الجفن تسعد
يذكرن آلاء الرسول وما أرى
لها محصيا نفسى فنفسى تبلى
مفجعة قد شفها فقد أحمد
فظلت لآلاء الرسول تعدد
وما بلغت من كل أمر عشيره
ولكن نفسى بعد ما قد توجده
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها
على طلل القبر الذى فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت
بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحدمك ضمن طيبا
عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه التراب أيد وأعين
عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيوا حلما وعلماء ورحمة
عشية علوه الثرى لا يوسد

(١) يظهر أن حسان نظم هذه القصيدة بعد وفاة الرسول بمدة .

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم
 وقد وهنت منهم ظهور وأعصد
 يكون من تبكى السماوات يومه
 ومن قد بكته الأرض فالتاس أكمد
 وهل عدلت يوما رزية هالك
 رزية يوم مات فيه محمد
 تقطع فيه منزل الوحي عنهم
 وقد كان ذا نور يغور وينجد
 يدل على الرحمن من يقتدى به
 وينقذ من هول الخزايا ويرشد
 امام لهم يهديهم الحق جاها
 معلم صادق ان يطيعوه يسعدوا
 عفو عن الزلات يقبل عذرهم
 وان يحسنوا فالله بالخير أجود
 وان ناب أمر لم يقوموا بحملة
 فمن عنده تيسير ما يتشدد
 فيبناهم في نعمة الله بينهم
 دليل به نهج الطريقة يقصد
 عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
 حريص على أن يستقيموا ويهدوا
 عطوف عليهم لا يثنى جناحه
 الى كف يحنو عليهم ويمهد

فيبناهم في ذلك النور اذ غدا
 الى نورهم سهم من الموت مقصد
 فأصبح محمودا الى الله راجعا
 يكيه حق المرسلات ويحمد
 وأمت بلاد الحرم وحشا بقاعها
 لغية ما كانت من الوحي تعهد
 قفارا سوى معمورة اللحد ضافها
 فقيده يكيه بلاط وغرقه
 ومسجده فالموحشات لفقده
 خلاء له فيه مقام ومقعد
 وبالحجرة الكبرى له ثم أوحشت
 ديار وعرصات وربيع ومولد
 فبكي رسول الله يا عين عبرة
 ولا أعرفك الدهر دمعك يجمد
 ومالك لا تبكين ذا النعمة التي
 على الناس منها سابغ يتغمد
 فجودى عليه بالدموع وأعولى
 لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد
 وما فقد الماضون مثل محمد
 ولا مثله حتى القيامة يفقد
 أعف وأوفى ذمة بعد ذمة
 وأقرب منه نائلا لا ينكد

وأبذل منه للطريف وتالد
إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم صيتا في البيوت إذا اتنى
وأكرم جدا أبطحيا يسود
وامنع ذروات وأثبت في العلا
دعائم عز شاهقات تشيد
وأثبت فرعا في الفروع ومنبتا
وعودا غذاه المزن فالعود أغيد
رباه وليدا فاستتم تمامه
على أكرم الخيرات رب مجد
تناهت ودعاة المسلمين بكفه
فلا العلم محبوس ولا الرأي يفند
أقول ولا يلغى لقولى غائب
من الناس الا عازب العقل مبعد
وليس هوانى نازعا عن ثنائه
لعلى به فى جنة الخلد أخلد
مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وفى نيل ذاك اليوم أسقى وأجهد
وقد رثى حسان بعض شهداء المسلمين فى حياة الرسول
صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء سعد بن معاذ ونافع بن بديل
وجعفر بن أبى طالب ، وحمزة وزيد بن حارثة وخبيب ، كذلك
رثى مطعم بن عدى الذى أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم

عندما طاف بالكعبة قبل الهجرة في وقت اشتد فيه ايذاء المشركين له
وذلك بعد وفاة عمه أبى طالب وهى آيات جيدة يقول فيها :

أعين ألا ابكى سيد الناس واسفحى
بدمع فان أنزفته فاسكبى الدما
وبكى عظيم المشعرين وربها

على الناس معروفا له ما تكلموا
فلو كان مجد يخلد اليوم ما جدا

من الناس أنجى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله فيهم فأصبحوا

عباؤك ما لبي ملب وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها

وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا هو الموفى بخفرة جاره

وذمته يوما اذا ما تذمما

ومن الملاحظ أن آيات حسان في رثاء شهداء المسلمين أفضل
فنيا من تلك التى نظمت في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم .
وربما كان احساسه بأنهم قتلوا في حرب بيد خصوم يعادونه كما
يعادون قومه قد دفعه لأن يبكى بذلك الاتفعال الذى كان يسيطر
عليه اذا ما بكى خزرجيا أو نجاريا قتل في يوم من أيامهم الجاهلية،
ومن ثم فهو يضيف الى هذا الرثاء هجاء مرا لمن قتلوههم ويتبعه
بفخر قوى يشيد فيه بانتصارات المسلمين . يقول راثيا حمزة
رضى الله عنه :

دع عنك دارا عفا رسمها
وابك على حمزة ذى النائل
المالىء الشيزى اذا أعصفت
غرباء فى ذى السنة الماحل
والتارك القرن لى لبد
يعثر فى ذى الخرص الذابل
واللابس الخيل اذا أحجمت
كالليث فى غاباته الباسل
أيض فى الذروة من هاشم
لم يمر دون الحق بالباطل

بقى بعد ذلك ما أثاره الرواة والنقاد القدماء من أن شعر
حسان ضعف فى الاسلام ، وقد رأينا أن الأصمعى علل ذلك بأن
الشعر نكد يقوى فى الشر ويسهل ، فاذا دخل فى الخير ضعف
ولان ، وكيف علل حسان ذلك فقال ان الاسلام يحجز عنى
الكذب ، يعنى أن الاجادة فى الشعر تستدعى الافراط والمبالغة
وهذا ضرب من الكذب يمنعه الاسلام .

ان ظاهرة اختلاف المستوى الفنى لشعر حسان فى الاسلام عنه
فى الجاهلية ظاهرة لافتة للنظر ، فلا شك أن من يقرأ شعر حسان
يشعر بالفارق الكبير بين القصائد التى نظمها فى الجاهلية وبين
تلك التى نظمها فى الاسلام ، فقصائده الجاهلية قوية جزلة صادقة
التعبير ، تنبض بالحياة ، وتتدفق بالأحاسيس التى توارثتها نفسه
جيلا بعد جيل ، أما شعره الاسلامى فقليل ذلك الذى يحتفظ

بمستواه ، وكثير الذى يسقط ويضعف . وهناك سببان لهذه الظاهرة :

أولهما : أن كثيرا من هذا الشعر الضعيف منحول وليس لحسان بن ثابت وانما صنعته قريش ثم أضاف له الرواة كثيرا وقد أشرنا الى شىء من ذلك فى مقدمة هذا الكتاب .

وثانيهما : أن حسان وجد نفسه بعد ظهور الاسلام ودخول يشرب فى الدين الجديد وهجرة الرسول اليها فى مأزق فنى ، كان شاعر الخزرج فى الجاهلية ما يقرب من ستين عاما كما تذكر الروايات وعاش معظم هذه السنين الطوال التى تعتبر فى عمر الشاعر أهم مراحل خصبه الفنى ، يعرف مما يعرف منه الشعراء الجاهليون ، وجاء الاسلام وتآخى الأوس والخزرج ، وحرمت الخمر والميسر ، وتوقف مديح الملوئ ، فليس من المعقول أن يمدح شاعر مسلم ملكا لم يدخل فى الاسلام بعد . وأصبح شاعرنا وقد حاصرت الحياة الجديدة فنه لا يجد مجالا ينظم فيه كما تعود فى جاهليته ، وفجأة وجد أن دورا عليه أن يمثله وهو فى الستين من عمره ، وذلك أن يكون شاعر الرسول والمسلمين . لقد كان طوال هذه السنين يؤدى دورا واحدا ، فكيف يمكنه أن يغير هذا الدور الى دور جديد يختلف تمام الاختلاف عن الدور الأول ، فهو لا يستطيع أن يفخر بالأيام القديمة ، ولا يستطيع أن يمدح بالخمر والميسر ، أو يفخر بالخزرج أو يؤجج نار الحرب ، ولكن عليه أن يمدح رجلا ليس بملك أو بشيخ قبيلة وانما رسول جاء بدين جديد . حقا انها لتجربة خطيرة لم يتعرض لها شاعر من

قبل أو من بعد . ثم عليه بعد ذلك أن يمدح خصومه الأوس كما
يفخر بهم وكأنهم أهله وعشيرته ، وعليه بعد هذا أن يهجو قوما
ما كان بينهم وبينه هجاء من قبل ، قوما سالتهم قبيلته في جاهليتها،
وصاهرت أفضل أحيائهم ، ثم هذا الرسول الذي يمدحه ينتسب
اليهم . انه موقف شائك ولا شك ، وصعب على رجل قضى
ستين عاما في جو اجتماعي وفني مختلف أن يجابهه ، فكيف
لا يضعف شعر حسان بعد هذا ، ان تحوله لأن يكون شاعر
الرسول قدرة فائقة في ذاتها ، فكيف به وقد نظم الشعر وصمد
أمام المشركين وكان الشاعر الرسمي للإسلام .

ورغم كل هذا فقد استطاع حسان أن ينغص حياة من
يهجوهم وأن يشيد بمن يمدحهم وكسب المسلمون المعركة الفنية
كما كسبوا المعارك الحربية .

و - حسان وفن المناقضة :

المناقضة عند حسان ليست شيئا جديدا عليه في الاسلام ،
فقد رأيناه في الجاهلية يناقض شعراء الأوس والقبائل الأخرى
المناهضة لقبيلته ويؤدى دوره كاملا في الرد على كل ما أضافوه
اليه أو الى قبيلته مما يشين القيم الجاهلية أو يتعارض مع فتوتها .
وكانت النقائض كلها في عصر الرسول عليه السلام امتدادا
للنقائض الجاهلية من حيث أصولها الفنية ، وقد شارك حسان
فيها شعراء مخضرمين أدركوا العصرين الجاهلي والاسلامي في
مكة والمدينة ومن العرب واليهود رجالا ونساء !
ولقد تغيرت النقيضة الاسلامية عن أختها الجاهلية من عدة

فواح؛ كان الهدف في الجاهلية يدور حول سبل العيش أو التنافس على الرئاسة أو مطمع فردى ، ولكنه في الاسلام يدور حول دين ينتشر ودولة تقوم ، وأمة تتكون ، والموضوع في الجاهلية افتخار وارهاب وتمجيد وهجاء ، فزاد في الاسلام دعوة الى الايمان ، وتبصيرا بالحق ، وشرحا لدين جديد . واستمر الأسلوب واحدا في العصرين فهو معارضة بالوقائع والأيام ، والمآثر والمحامد ، وتعبير بالمثالب والمخازى وطعن في الأنساب والأصول . وقد أضاف الاسلام أسلوبا جديدا برز فيه عبد الله بن رواحة حين كان يعير المشركين بالكفر والاشراك بالله وهو أسلوب لم يعرفه الجاهليون . ولم يكن الشعراء وحدهم في هذه المعركة الفنية بل لقد دخلها القرآن ^(١) الكريم حينما سجل ذلك الجدل الذي كان يثار بين الرسول وبين العرب واليهود والنصارى والمجوس في موضوعات شتى كالألوهية والنبوة والبعث ، فها هو يرد دعاوى اليهود والنصارى ويكذبهم تكذيبا قائما على أدلة واقعية كقوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل ، فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله ملك السماوات والأرض وما بينهما . واليه المصير » ^(٢) .

فاذا استمر ادعائهم بأنه لن يدخل الجنة غيرهم طالبهم بالبرهان « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى ،

(١) انظر تاريخ النقائض في الشعر العربى ١٢١ وما بعدها .

(٢) سورة المائدة آية ١٨ .

تلك أمانهم ، قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ، بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون « (١) .

ان أسلوب القرآن الكريم فى مناقشة خصوم الاسلام أسلوب يعتمد على المناقضة والرد على المفتريات التى يشيعها أعداء الرسول والمسلمين ، ومن هنا لم يكن الشعر الاسلامى وحده فى تلك المعركة الفنية ، بل كانت الحياة الفنية بكل عناصرها تساهم فيها وتشارك بكل مكوناتها حتى استطاع المسلمون فى النهاية أن يتغلبوا فيها كما تغلبوا فى معركة السيف ومعركة الدعوة .

لا نغالى اذن اذا قلنا ان النقائض الاسلامية كانت من الناحية الفنية امتدادا للنقائض الجاهلية وأنها دارت فى ظل الغزوات كما كانت تدور أختها الجاهلية فى ظل الأيام .

ولقد اشترك حسان فى هذه المناقضة منذ غزوة بدر ، واستمر علمها الأكبر ، ولسانها الحاد حتى يوم فتح مكة ، يرد على الخصوم ويهاجم المشركين ، وهو فى كل ذلك يحمى أعراض المسلمين ، ويفخر بنبوة الرسول .

فعندما بكى عبد الله بن الزبيرى قتلى بدر من المشركين فى أبياته التى منها :

ماذا على بدر وماذا حوله

من فتية ييـض الوجوه كرام

(١) سورة البقرة آية ١١١ .

تركوا نبيها خلفهم ومنبها
وابنى ربيعة خير خصم فقام
والحارث الفياض يبرق وجهه
كالبدر جلى ليلة الاظلام
أجابه حسان :

ابك بكت عيناك ثم تبادرت
بدم تعمل غروبها بسجام
ماذا بكيت به الذين تتابعوا
هلا ذكرت مكارم الأقسام
أعنى النبی أخا المكارم والندی
وأبر من يولى على الأقسام
فلمثله ولمثل ما يدعو له
كان المدح ثم غير كهام
ويقوم رد حسان على تقطين : استنكاره البكاء على قتلى
المشركين من قريش والافتخار بالرسول ودعوته .
وعندما يعرض حسان بالحارث بن هشام وبفراره من المعركة
يوم بدر فى قوله :

يا من لعاذلة تلوم سفاهة
ولقد عصيت على الهوى لوامى
ان كنت كاذبة الذى حدثتنى
فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأجابة أن يقاتل دونهم
ونجا برأس طيرة ولجام
وبنو أبيه ورهطه في معرك
نصر الاله به ذوى الاسلام
يرد عليه الحارث قوله مدافعا عن نفسه ،موجها دعواه الى
تفسير جديد فيقول :

الله أعلم ما تركت قتالهم
حتى جوا مهري بأشقر مزبد
وعرفت أنى ان أقاتل واحدا
أقتل ، ولا ينكى عدوى مشهدى

فصدت عنهم والأجابة فيهم
طمعا لهم بعقاب يوم مفسد
وحيثما يفزع كعب بن الأشرف اليهودى من انتصار المسلمين
فى بدر وهزيمة أشراف قريش يأتى مكة وينزل على عبد المطلب
ابن أبى وادعة السهمى فيحرض على الرسول وعلى المسلمين بكاء
أصحاب القلب من قريش الذين أصيبوا فى بدر فيقول من
قصيدة :

طحنت رحي بدر لمهلك أهله
ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم
لا تبعدوا ان الملوك تصرع

كم قد أصيب به من ايض ما جد
 ذى بهجة يأوى اليه الضيع
 طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت
 حال أقال يسود ويربع
 نبئت أن الحارث بن هشامهم
 في الناس يبنى الصالحات ويجمع
 ليزور يشرب بالجموع وانما
 يحمي على الحسب الكريم الأروع
 ويحييه حسان بن ثابت يسخر به ، ويشمت في قتلى المشركين ،
 ويهجو الفارين منهم ، ويمدح الرسول :
 أبكى لكعب ثم عل بعبرة
 منه وعاش مجدعا لا يسمع
 ولقد رأيت بطن بدر منهم
 قتلى تسح لها العيون وتدمع
 خابكى فقد أبكيت عبدا راضعا
 شبه الكليب الى الكلية يتبع
 ولقد شفى الرحمن منا سيذا
 وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
 ونجا وأفلت منهم من قلبه
 شفع يظل لخوفه يتصدع
 وفي أحد يجد المشركون فرصتهم ، ويعلن أبو سفيان بن حرب
 النصر متشفيا ، ويصرخ بأعلى صوته :

ولو أنتى لم أشف نفسى منهم
 لكنت شجا فى القلب ذات ندوب
 فأبوا وقد أودى الجلايب منهم
 بهم خذب من معبط وكئيب (١)
 أصابهم من لم يكن لدمائهم
 كفاء ولا فى خطبة بضرب
 ويرد عليه حسان يذكره بانتصار المسلمين فى بدر وكيف
 حصدوا فيها قريشا حصدا ، وأن حمزة لم يمت هدرًا وإنما قتل به
 فى بدر أشراف قريش :
 ذكرت القروم الصيد من آل هاشم
 ولست لزور قلتيه بمصيب
 أتعجب أن أقصدت حمزة منهم
 نجيبًا وقد سميته بنجيب
 ألم يقتلوا عمرا وعتبة وابنه
 وشيبة والحجاج وابن حبيب
 غداة دعا العاصى عليا فراعته
 بضربة غضب بلسه بخضيب
 وكثرت المناقضة فى أحد وتعددت جوانبها كما تعدد شعراؤها
 فهذا هبيرة بن أبى وهب المخزومى من المشركين يقول :
 سقنا كنانة من أطراف ذى يمن
 عرض البلاد على ما كان يزجها

(١) الخذب : الطعن النافذ للجوف .

قالت كنانة : أنى تذهبون بنا ؟

قلنا : النخيل ، فأموها ومن فيها

نحن الفوارس يوم الجبر من أحد

هابت معد ، فقلنا : نحن نأتيها

هابوا ضرابا وطعنا صادقا خذما

مما يرون . وقد ضمت قواصيا

ثمت رحنا كأنا عارض برد

وقام هام بنى النجار يكيها

ويرد حسان عليه معانيه قائلا :

سقم كنانة جهلا من سفاهتكم

الى الرسول فجنده الله مخزيها

أوردتموها حياض الموت ضاحية

فالنار موعدها والقتل لاقيا

جمعتموها أحايشا بلا حسب

أئمة الكفر ، غرتكم طواغيها

ألا اعتبرتم بخيل الله اذ قتلت

أهل القلب ومن ألقينه فيها

كم من أمير فككناه بلا ثمن

وجز ناصية كنا مواليتها

كان هيرة ممتازا فى توجيه الفخر ، وممتازا فى اختيار

الأسلوب ، ثم كان معتزا بنتيجة المعركة ، متخذاً منها أرضه الصلبة

ومستمدا منها أيضا نعمة الانتصار ، وكان حسان يحس بكل

ذلك ، وكان عليه أن يوجه كل هذه المعانى توجيهها فى صالحه ،
فكان سوق كنانة عنده جهالة لا بطولة ، وكانت قيادتها الى
الموت لا الى النصر ، ثم كان السبق فى النصر للمسلمين فى بدر
فهو يومهم الأعظم ، وفخرهم الأجل .

وربما كان من أعنف من قابلهم حسان فى مناقضاته شاعر
المشركين عبد الله بن الزبعرى الذى وقف ينشد أغنية أحد التى
كانت تغنيها قريش كلما تأزمت بها الحال . يقول موجه حديثه
لحسان :

يا غراب البين أسمعت فقل
انما تنطق شيئا قد فعل
إن للخير وللشر مدى
وكلا ذلك وجه وقبل
أبلغنا حسان عنى آية
فقريض الشعر يشفى ذا الغلل
كم ترى بالجر من جمجمة
وأكف قد أبيت ورجل
كم قتلنا من كريم سيد
ما جد الجدين معدام بطل
فسل المهراس من ساكنه
بين أقحاف وهام كالجل
ليت أشياخى يبدرو شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل

ولم يكن أمام حسان الا بدر يستمد منها رده عليه ففيها يجد
ما يستطيع أن يوازن به بين النصرين : نصر المسلمين في بدر ونصر
المشركين في أحد . وكان عليه في هذه الموازنة أن يثبت أن انتصار
المشركين في أحد ليس شيئاً ، والنصر كل النصر ما كان في بدر .
يقول :

ذهبت بابن الزبعرى وقعة
كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتهم وقلنا منكم
وكذاك الحرب أحيانا دول
نضع الأسياف في أكتافكم
حيث نهوى عللا بعد نهل
اذ تولون على أعقابكم
هربا في الشعب أشباه الرسل
اذ شددنا شدة صادقة
فأجأناكم الى سفح الجبل
وعلونا يوم بدر بالتقى
طاعة الله وتصديق الرسل
وتركنا في قریش عورة

يوم بدر وأحاديث المثل
وتكثر المناقضات ، فما هو يهجو أبا سفيان بن الحارث في
بدر الآخرة التي رجع فيها أبو سفيان فلم يتقدم للقاء المسلمين
بآيائه التي أولها :

دعوا فلجات الشام قد حال دونها

جلاد كأفواه المخاض الأوارك

أقمنا على الرس النزوع ثمانيا

بأرعن جرار عريض المبارك

بكل كميت جوزه نصف خلقه

وقب طوال مشرفات الحوارك

فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة

فانك من عز الرجال الصعالك

فيجييه أبو سفيان بأبياته التى منها :

أحسان مهلا يا ابن آكلة الغفا

وجدك نغتال الخروق كذلك

أقمت على الرس النزوع تريدنا

وتتركنا فى النخل عند المذارك

على الزرع تمشى خيلنا وركابنا

فما وطئت ألصقنه بالدكادك

وجدير بالملاحظة فى هذه النقيضة أن أبا سفيان حين يهجو

حسان وقومه من الخزرج ينفى عنهم فضيلتين يتمدح بهما

المسلمون وهما : الهجرة والتدين ويشتبهما لقريش المهاجرة فهى

منهم على أى حال !

فانك لا فى هجرة ان ذكرتها

ولا حرمت الدين أنت بناسك

وفي يوم الخندق نجد المعركة حادة بين ابن الزبير وحسان،
فابن الزبير يفتخر بجيش عينة الذي ناصر المشركين ، ويعلم
أنه لولا الخندق الذي خفوه المسلمون حماية لهم ودفاعا عن
مدينتهم لدخلت قريش المدينة ظافرة قائلة . وهذه القصيدة هي
التي أولها :

حيّ الديار محامعارف رسمها
طول البلى وتراوح الأحقاب
وفيها يقول :

جيش عينة قاصد بلوائه
فيه وصخر قائد الأحزاب
قرمان كالبدارين أصبح فيهما
غيث الفقير ومقل الهراب
حتى اذا وردوا المدينة وارتدوا
للموت كل مجرب قضاب
شعرا وعشرا قاهرين محمدا
وصحابه في الحرب خير صحاب
نادوا برحلتهم صبيحة قلتم
كدنا نكون بها مع الخياب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم
قتلى لطير سغب وذئاب

ويرد حسان على ابن الزبيرى معانيه^(١) ، فهذا الجيش —
وعيينة معه — قد هزمته العاصفة ، ورد على عقبه مغيفا وكان
ذلك حماية من الله تعالى للرسول والمسلمين .

جيش عيينة وابن حرب فيهم
متخبطون بحلبة الأحزاب

حتى اذا وردوا المدينة وارتجوا
قتل الرسول ومغنم الأسلاب

وغدوا علينا قادرين بأيدهم
ردوا بغيظهم على الأعقاب

بهبوب معصفة تفرق جمعهم
وجنود ربك سيد الأرباب

فكفى الاله المؤمنين قتالهم
وأثابهم في الأجر خير ثواب

من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم
تنزيل نصر مليكننا الوهاب

وتكثر المناقضات لأن الصراع مستمر ، والمعركة دائمة ،

والقلم يشارك السيف في كل ضربة ، ويرمى مع القوس في كل

رمية ، وهنا يحق لنا أن نسأل كيف كان موقف حسان في هذا

الخضم الجارف وما مكاتته فيه .

(١) مطلع قصيدة حسان :

هل رسم دراسة المقام ييباب
متكلم لحاور بجواب

ربما كان في حديثنا السابق اشارات الى طبيعة موقفه والى مكاتته بين هؤلاء المتناقضين ، ولكن يهنا هنا أن تفصل الحديث في كل ذلك لأن المناقضات هى الموضوع الرئيسى الذى يساعدنا على رسم صورة واضحة لشخصية حسان في الاسلام .

لنتخيل شاعرا عاش أخصب فترات عمره عيشة جاهلية بكل ما يمثله هذا اللفظ من تصوير لهذه البيئة بمعتقداتها وتقاليدها وثقافتها وتكوينها الاجتماعى والنفسى . ولم يكن هذا الشاعر منعزلا أو مبتعدا عن هذه البيئة بأى صورة من الصور ، بل على العكس كان مثالا لها في كل شئونها ، وتعكس عليه كل ملامحها لأنه كان ابنا بارا لعصبيتها ولكل ما تمثله من أساليب حياة .

وفجأة تتغير هذه البيئة كلية — أو اذا حاولنا أن نحترز قليلا — تتجه نحو التغير في كل مكوناتها ، التكوين الاجتماعى والعقيدى والاقتصادى والنفسى وهو ما حاولنا أن نتحدث عنه في أول هذا القسم من كتابنا عندما تحدثنا عن التغير الكبير الذى طرأ على يشرب ، وفجأة أطالب الشاعر بأن يتغير هو أيضا ، يتغير في معتقده وفي طريقة ارتباطه بمجتمعه وفي نفسيته وهذا أخطر التغيرات جميعا . وهو ليس انسانا عاديا اذا حدث تغير فيه فلن يشعر به أحد شعورا مباشرا ولكنه شاعر خطير ينظر اليه كما ينظر الى فارس من فرسان القبيلة أو شيخ من شيوخها لأن مكاتته في قومه لا تقل عن ذلك ان لم تعل هؤلاء جميعا . وهو ينظم الشعر يتحدث به عن مألوف معتقدات القبيلة وقيمها وأسلوب حياتها ولقد عاش ستين عاما يؤدي دوره هذا دون كلل ودون

أى تغيير . وفجأة تطالبه القبيلة أن يتغير كما تغيرت ، وأن يسلك سلوكا جديدا لم يتعوده طوال عمره الطويل الذى عاشه ، وان لم يفعل ذلك فقد اختل وضعه الاجتماعى ، وفقد صفته الأساسية فى قومه ووظيفته الرئيسية فى بيئته ! والشاعر ذكى ، ويعلم جيدا أنه ان فشل فى توجيه حياته وأسلوب معيشته وتوجيهه فنه أيضا هذه الوجهة الجديدة فقد نفسه بين قومه . وان هذا كله يجعلنا نتصور الموقف الحرج الذى وضع فيه حسان الشاعر الجاهلى العريق !

وقد يكون من السهل نسبيا أن يتغير حسان معتقده ، وأن يألف التكوين الجديد لمجتمعه ، وأن يخضع لكل ما ألم بقومه من تغيير فلا يتخلف فى اتباعها ولكنه هل يستطيع بهذه السهولة أيضا أن يغير من تكوينه النفسى الذى تحددت أبعاده ، وترسبت خصائصه طوال هذا العمر الطويل !

تلك كانت مشكلة حسان مع نفسه ومع فنه !
لقد وجد حسان فى النقيضة متنفسا للتعبير عن هذه النفسية ما لم يجده فى أى شكل آخر كالقصيدة مثلا ، لأن النقيضة هى الفن الجاهلى الأصيل الذى يعبر عن ذلك الصراع الذى كان يمثل منطق البقاء لتلك الحياة ، والمناقضة كالمبارزة سواء بسواء هى المظهر الرئيسى لهذا الصراع ، وهى المعبر عنه كلما التقت الصفوف ، وتقارعت السيوف . لذلك نلاحظ فى تلك الأمثلة التى ذكرناها عن هذه المناقضات الاسلامية أنها استمرار للمناقضات الجاهلية فى شكلها ومضمونها وان كسا حسان الاسلامية منها

ببعض المعانى المستمدة من الدين الجديد والتي لم تكن مألوفاً في هذا الوقت .

فالنقيضة الاسلامية كأختها الجاهلية اصطراع بأصالة الأنساب وأمجاد الأيام ، وافتخار بقيم الفتوة ، وعنجهية البداوة . وتهاج بذكر المثالب وتسجيل المخازى واظهار المعاييب وفضح العورات ، ثم بعد ذلك اصرار على الانتقام وقتل الخصوم ، وتأکید في ابراز الفردية وقوة العصبية .

وكان حسان صاحب مجد في كل ذلك في الجاهلية ، واستمر صاحب فضل في كل ذلك في الاسلام ، فأما الاصطراع بأصالة الأنساب وأمجاد الأيام فقد عرف من النبع الجاهلى القديم ثم استمد من نبع جديد انبثق في عهد الرسول وهو في غزواته صلى الله عليه وسلم للمشرکين . وأما الافتخار بقيم الفتوة وعنجهية البداوة فقد أبقي الاسلام على كثير من مظاهر هذه الفتوة كذلك أبقي على القوة النفسية للبدوى وأخذ يوجهها نحو الخير والحق ، ويستمد حسان من العنصرين معا : الفتوة والقوة النفسية — المعانى في مناقضاته . وأما التهاجى بالمثالب والمخازى فقد اعتمد حسان عليهما في اذلال مهاجيه من المشرکين ولم يتوان عن ذكر المعاييب وفضح العورات ليحطم من كبريائهم ، ويذل من نفسياتهم . واذا نظرنا بعد ذلك الى تأكيده لنبرة الانتقام في شعره وخاصة بعد أحد وبعد يوم بئر معونة وبئر الرجيع ، فسنجد أنها تتردد بعنف في نقائضه ، يرد بها على من شتموا بالمسلمين في تلك الأيام ، وفرحوا فيمن استشهد منهم غدرا وغيلة .

ولقد كان شعر حسان كله يؤكد نوعا جديدا من العصبية غلف به العصبية الجاهلية القديمة ، تلك هى عصبية المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وعصبية للرسول صلى الله عليه وسلم وما يحمله من عقيدة قوية وكتاب كريم . ورغم أن عصبية حسان القبلية كانت تظهر الى جانب هذه العصبية الجديدة فقد كان ذلك ليتمكن لنفسه من أن يرد على عصبية قريش المخاخرة بالأيام والأفساب ، والتي دفعته الى أن يتحدث ويفاخر بعصبية الخزرج وبنى النجار .

واننا لنؤكد بعد كل ما عرضناه من نماذج وأمثلة لهذه المناقضات من أن هذا الفن كان أهم ما نجح فيه حسان فى الاسلام ، وان أى قراءة سريعة لمناقضاته ستجعلنا نحس من الوهلة الأولى بقوتها وتفوقها على غيرها من فنون شعره ، وان سبب ذلك بسيط جدا ، فقد وجد فى هذه المناقضات استمرارا لفننه الجاهلى القديم الذى ألفه طوال عمره ، واستمر يآلفه فى الاسلام دون أن يضطر لأن يغير من أصوله شيئا .

الفصل الرابع

شعر حسان في عصر الخلفاء الراشدين

امتد العمر بحسان حتى شهد خلافة على ، ومعنى ذلك أنه عاصر أهم فترة في تاريخ نشأة الدولة الإسلامية من حيث تكوينها وفتوحاتها . وهكذا أتاح القدر لهذا الرجل أن يشهد أخطر ثلاث مراحل في تاريخ الجزيرة العربية مرحلة ما قبل الاسلام عندما بلغ الصراع القبلي أوجه حتى خاف كل عربي على نفسه من القتل اذا ما خرج عن حيه أو حصنه ، ومرحلة الدعوة الإسلامية كلها منذ أن بعث الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وفاته . بكل ما فيها من أحداث وتطور في مجتمع الجزيرة العربي ، وأخيرا مرحلة خلافة الخلفاء الراشدين وما ضمته هذه المرحلة من أحداث خطيرة تتصل بالدعوة كحروب الردة ومدعى النبوة وحروب الفتح ثم أحداث الفتنة الكبرى في عصر عثمان وعلى وتصدع الوحدة الإسلامية .

وقد شهدت مدينة الرسول نوعا من الحياة الهادئة المستقرة في عهدي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما اذ أصبحت عاصمة الدولة الجديدة حتى أن القرشيين الطامحين انتقلوا من مكة اليها كأبي سفيان بن حرب وبنو أمية منذ أواخر عهد الرسول ، وكثرت

الهجرة إليها — ليس من مكة فحسب بل من جميع أنحاء جزيرة العرب وخاصة أولئك الذين كانوا يبحثون عن فرصتهم في هذه الحياة الجديدة . وأخذ عدد المهاجرين يتزايد حتى فقد الأنصار — سكان يثرب الحقيقيون — كثرتهم العديدة وأخذوا ينزلون الى المرتبة الثانية عددا ونفودا . وهكذا أصبحت المدينة مقر الحكومة الاسلامية ، كما أصبحت مقر الطبقة الارستقراطية من القرشيين ، وكثرت فيها الأموال التي كانت تتدفق على المسلمين أثناء حروب الفتح مما هيأ الفرصة لانتشار الترف ، والانغماس في الرفاهية وكان لهذا مظهره في المدينة .

وحينما خرج الخلفاء الأولون من صفوف قدماء الصحابة وكبارهم أولئك الذين هاجروا بدينهم وثبتوا في ميادين الجهاد الى جانب نبيهم ، خلف ذلك شيئا من الأسى في أول الأمر في نفوس الأنصار الذين كانوا يرغبون في أن تكون الخلافة فيهم ، وظهر ذلك يوم انتخاب أبي بكر خليفة للمسلمين في سقيفة بنى ساعدة ، وقد كان لحروب الردة أثرها في اختفاء الانقسام الذي كان يمكن أن يقع في انتخاب الخليفة الأول ، فالخطر يهدد المسلمين جميعا ، والأنصار — وهم الأوفياء لرسولهم ولدينهم — هم أول من يخرجون لرد المرتدين واخماد ثورات المنتبئين .

وحينما بدأ عصر الفتح الاسلامي لامبراطوريات الشمال كان الأنصار يكونون جزءا عظيما من الجيش الفاتح وان لم تكن القيادات الكبيرة في أيديهم .

ولم تنته معارضة الأنصار للخليفة الحاكم وانما اندمجت فيما

بعد في التيار الذي كان يتزعمه أهل التقى والمتمسكون بسلامة نظام الحكومة التيوقراطية !

وقد لاقت سياسة عثمان وولاته معارضة شديدة في الأمصار الإسلامية المفتوحة ، وقامت فيها الثورات مثل ثورة مالك بن الأشتر في الكوفة ، وثورة محمد بن أبي حذيفة في مصر ، ووفد الثوار الى المدينة وحينئذ شهدت حدثا رهيبا وهو مقتل خليفة رسول الله عثمان بن عفان على أيديهم . وكان أكثر أهل المدينة لا يميلون لعثمان وشيعته الأموية ولكن يميلون الى علي بن أبي طالب ويرون فيه أحق أهل الرسول بالخلافة ، لذلك سرعان ما بايعوه مبايعة عامة في مسجد الرسول وفي نفس اليوم الذي قتل فيه عثمان . أما المناهضون لعلي فقد خرجوا منها بعد أن أصبحت مقلدا لأنصاره . وقد اتجه طلحة والزبير ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها الى البصرة حيث استولوا عليها . واتخذوها قاعدة لمناهضة الخليفة الجديد . وعندئذ لم يكن أمام علي إلا أن ينتقل الى الكوفة حيث يسيطر مؤيده مالك بن الأشتر ليكون قريبا من مراكز المعارضة سواء في البصرة أو دمشق . وبذلك انتهت الخلافة من مدينة الرسول وانتقل مركز الثقل في جزيرة العرب من وسطها الى أطرافها .

وأصبحت المدينة بعد انتقال الخلافة منها ملاذ الطبقة الأرستقراطية من العرب وصومعة الذين اعتزلوا الحياة العامة من كبار الصحابة والتابعين بسبب أحداث الفتنة وانشقاق المسلمين . وتستمر الأحداث في توجيه الشعور العام بالمدينة بعد مقتل

على ، ولكن الى هنا لا نجد أخبارا عن حسان ، وأغلب الظن أنه توفي في أواخر الفتنة أو أوائل خلافة معاوية وكان قد بلغ نيفا ومائة عام .

ولكننا اذا تتبعنا حياته منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فسنجد أن صوته يخفت في عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وكأنه قد أدى واجبه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان من المتوقع أن نسمع صوت حسان يسجل أحداث المرتدين والمتنبئين وهى أحداث هزت المجتمع الاسلامى في أول عهده بنياب الرسول عنه ، وغياب قيادته الروحية والمدينة المباشرة .

وقد يكون حسان قد سجل شيئا من هذه الأحداث وفقدما الرواة اذ أننا نجد آياتا له في هجاء بنى سليم وكانوا قد قالوا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم : لا نطيع أبا الفصيل ويعنوز أبا بكر . يقول في هذه الآيات :

ما البكر الا كالفصيل وقد ترى
أن الفصيل عليه ليس بعمار

أنا وما حج الحجاج لبيته
ركبان مكة معشر الأنصار

نصرى جماجمكم بكل مهند
ضرب القدار مبادئ الأيسار

حتى تكتوه بفحل هنيءة
يحمى الطروقة بازل هدار

ونجد أبياتا له في أبي بكر أيضا اختلف فيها الباحثون ، فمنهم من قال انها في مدحه ، ومنهم من قال انها في رثائه . يقول فيها :
إذا تذكرت شجوا من أخى ثقة

فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها

بعد النبي وأوفاهما بما حملا

والثاني الصادق المحمود مشهده

وأول الناس منهم صدق الرسلا

عاشا حميدا لأمر الله متبعيا

بهدى صاحبه الماضي وما اتقلا

وقد أشار الجاحظ الى أن هذه الأبيات في رثاء أبي بكر وكذلك دونت مخطوطات الديوان ، غير أن الأستاذ عبد السلام هارون يقول انها في مدحه رضى الله عنه .

ولا أحب أن أشك في صحة نسبة هذه الأبيات لحسان فذلك له مكان آخر .

أما في عهد عمر فانتا نجد أبا الفرج الأصفهاني يسجل خبرا في أغانيه يدل على صلة حسان بالنزاع القبلي الذي كان ما يزال يعيش في نفوس بعض المسلمين ويوجه سلوكهم ، كذلك يدل على أن المناقضات التي ثارت بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين ما زالت تثير الالحن في النفوس . وكان عمر قد نهى الناس عن أن يشدوا شيئا من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : في

ذلك شتم الحى بالميت وتجديد الضغائن . وقد هدم الله أمر
الجاهلية بما جاء فى الاسلام .

فقد حدث أن قدم المدينة عبد الله بن الزبيرى السهمى وضرار
ابن الخطاب الفهرى — وهما من كبار هجائى قريش المشركة
قبل الفتح — فنزلا على أبى أحمد بن جحش وقالاه : نحب
أن ترسل الى حسان بن ثابت حتى يأتيك فننشده وينشدنا مما
قلناه وقال لنا . فأرسل اليه فجاءه . فقال له : يا أبا الوليد ، هذان
أخواك ابن الزبيرى وضرار قد جاءا أن يسمعاك وتسمعهما
ما قالاه لك وقلت لهما . فقال ابن الزبيرى وضرار : نعم
يا أبا الوليد ! ان شعرك كان يحتمل فى الاسلام ولا يحتمل
شعرنا . وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا . فقال حسان : فتبدآن
أم أبداً ، قالاه : نبدأ نحن . قال : ابتدئا ! فأنشدها حتى فار فصار
كالمرجل غضبا ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة . فخرج
حسان حتى دخل على عمر بن الخطاب فقص عليه قصتهما وقصته .
فقال له عمر ، لن يذهبا عنك بشيء ان شاء الله . وأرسل من يردهما .
وقال له عمر : لو لم تدركهما بمكة فارددهما على . وخرجا ، فلما
كانا بالروحاء ^(١) رجع ضرار الى صاحبه بكره فقال له : يا ابن
الزبيرى ! أنا أعرف عمر وذبه عن الاسلام وأهله ، وأعرف حسان
وقلة صبره على ما فعلنا به ، وكأنى به وقد شكاه اليه ما فعلنا
فأرسل فى آثارنا وقال لرسوله : ان لم تلحقهما الا بمكة فارددهما
على فاربج بنا ترك العناء وأقم بنا مكاننا ، فان كان الذى ظننت

(١) موضع بين مكة والمدينة على بعد ثلاثين ميلا من المدينة .

فالرجوع من الروحاء أسهل منه من أبعد منها ، وإن أخطأ ظننى
فذلك الذى نحب ونحن من وراء المضى . فقال ابن الزبيرى :
نعم ما رأيت . قال فأقاما بالروحاء فما كان الا كمر الطائر حتى
وافاهما رسول عمر فردهما اليه ، فدعا لهما بحسان . وعمر فى
جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لحسان :
أنشدتهما مما قلت لهما ، فأنشدتهما حتى فرغ مما قال لهما فوقف .
فقال له عمر : أفرغت ؟ قال : نعم ! فقال له : أنشداك فى الخلاء
وأنشدتهما فى الملأ . وقال لهما عمر : ان شئتما فأقيما ، وان شئتما
فانصرفا . وقال لمن حضره : انى قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما
كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للتضاغن عنكم وبث القبح
فيما بينكم ، فأما اذا أبوا فاكسبوه واحتفظوا به . فدونوا ذلك
عندهم . قال خلاد بن محمد فأدركنه والله وان الأنصار لتجدده
عندها اذا خافت بلاءه .

وقد رثى حسان عمر بن الخطاب عندما توفى بأبيات قليلة :
تحكى قصة مقتله وتصف أخلاقه بصورة تقريرية لا أثر فيها
للعاطفة أو التأثير . وهى :

وفجعنا فيروز لادر دره
بأيض يتلو المحكمات منيب
رءوف على الأدنى غليظ على العدا
أخى ثقة فى النائبات نجيب
متى ما يقل لا يكذب القول فعله
سريع الى الخيرات غير قطوب

مطيع لأمر الله بالحق عارف

بعيد الأنام عنده كقريب

وتأتى الخلافة الى عثمان بن عفان رضى الله عنه ، واذا بنا

فجأة نسمع صوت حسان مرة أخرى — بعد أن كان اختفى

تقريبا فى عهد أبى بكر وعمر — نائرا غاضبا ومتوعدا ومؤلبا

وذلك أثناء الثورة عليه من الأمصار ثم بعد مقتله رضى الله عنه .

وهنا تقف برهة لتبين هوى حسان فى خضم هذا الصراع السياسى

الذى بدأ بخلافة عثمان .

روى أبو الفرج الأصفهاني (١) أن حسان بن ثابت ونعمان

ابن بشير وكعب بن مالك كانوا عثمانية ، وكانوا يقدمون بنى

أمية على بنى هاشم . ويقولون الشام خير من المدينة ، واتصل

بهم أن ذلك قد بلغ عليا فدخلوا عليه فقال له كعب بن مالك :

يا أمير المؤمنين ! أخبرنا عن عثمان أقتل ظالما فنقول بقولك أو قتل

مظلوما فنقول بقولنا ونكلك الى الشبهة فيه ، فالعجب من تيقننا

وشكك . وقد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه ، فهاته

نعرفه . ثم قال :

وكف يديه ثم أغلق بابه

وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لمن فى داره لا تقا تلوا

عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل

(١) الأغاني ١٥ : ٢٩ (الساسى) .

كيف رأيت الله صب عليهم الـ
مداوة والبغضاء بعد التواصل

وكيف رأيت الخير أدبر عنهم
وولى كادبار النعام الجوافل

فقال لهم على عليه السلام : لكم عندي ثلاثة أشياء ، استأثر
عثمان فأساء الأثرة ، وجزغتم فأسأتم الجزع ، وعند الله ما تختلفون
فيه الى يوم القيامة . فقالوا : لا ترضى العرب بهذا ولا تعذرنا .
فقال على عليه السلام : أتردون على بين ظهرائي المسلمين بلا نية
صادقة ولا حجة واضحة ، اخرجوا عنى فلا تجاوروني في بلد أنا
فيه أبدا ! فخرجوا من يومهم فसारوا حتى أتوا معاوية فقال :
لكم الكفاية أو الولاية ، فأعطى حسان بن ثابت ألف دينار ،
وكعب بن مالك ألف دينار ، وولى نعمان بن بشير حمص ، ثم نقله
الى الكوفة .

وواضح في هذا النص أن حسان كان عثمانى الهوى ، وأنه
كان ممن شارك في إثارة السؤال الذى يستفسر عن مقتل عثمان
هل قتل ظلما أو مظلوما حتى أنه امتنع عن مبايعة على بالخلافة
فقد جاء عن عبد الله بن الحسن (١) قال : لما قتل عثمان رضى الله
عنه بايعة الأنصار عليا الا تفرا يسيرا منهم حسان بن ثابت وكعب
ابن مالك وسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد بن مسلمة
والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن
عبيد الله وكعب بن عجرة كانوا عثمانية . فقال رجل لعبد الله بن

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٥٣ - ١٥٤ .

الحسن كيف أبى هؤلاء بيعة على وكانوا عثمانية ؟ قال أما حسان فكان شاعرا لا يبالي ما يصنع ، وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال ، فأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له .

ويظهر أن حسان استمر في معارضة على طوال فترة خلافته القصيرة فقد كان يشمت بمن يقيلهم على من الولاء الذين كانوا قد ناصروه في أول الأمر ، وذلك كما حدث عندما أقال على قيس ابن سعد الأنصاري من ولاية مصر وولى مكانه محمد بن أبي بكر ، فغضب قيس ، وخرج منها مقبلا الى المدينة فقدمها فجاءه حسان ابن ثابت شامتا به ، فقال له : نزعك على بن أبي طالب وقد قتلت عثمان فبقى عليك الاثم ولم يحسن لك الشكر . فقال له قيس ابن سعد : يا أعمى القلب والبصر ، والله لولا أن ألقى بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك ، اخرج عنى !

ويظهر أن حسان كان ممن لعبوا دورا في حادثة مقتل عثمان ، فقد كان واحدا ممن أقنع المصريين بالرجوع الى بلادهم . جاء في الطبرى أنه لما نزل المصريون ذا خشب ، كلم عثمان عليا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يردوهم عنه ، فركب على وركب معه نفر من المهاجرين فيهم سعيد بن زيد وأبو جهم العدوى وجبير بن مطعم وحكيم بن حزام ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وخرج من الأنصار أبو أسيد الساعدي وأبو حميد الساعدي وزيد بن ثابت وحسان بن ثابت وكعب بن مالك .. وغيرهم ثلاثون رجلا ،

وكلمهم على ومحمد بن مسلمة وهما اللذان قدما ، فسمعوا
مقاتلتهما ورجعوا !

كذلك كان حسان واحدا ممن ذب عن عثمان رضى الله عنه
قبل مقتله ، فقد روى أنه لما كانت سنة أربع وثلاثين (من الهجرة)
كتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم الى بعض أن
اقدموا ، فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد . وكثر الناس
على عثمان ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب الا نكير : زيد بن ثابت
وأبو أسيد الساعدي وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، غير أن
حسان لم يلبث أن ترك المدينة قبل مقتل عثمان قاصدا نحو
الشام في وقت كان الخليفة فيه في أشد الحاجة لمن يدافع عنه ويشد
أزره ، فقد روى أنه لما أحيط بعثمان رضى الله عنه خرج عمرو
ابن العاص من المدينة متوجها نحو الشام وقال : والله يا أهل
المدينة ما يقيم بها أحد فيدركه قتل هذا الرجل الا ضربه الله
عز وجل بذل ، من لم يستطع نصره فليهرب ، فسار معه ابنه
عبد الله ومحمد ، وخرج بعده حسان بن ثابت !

وقد حفظ لنا ديوان حسان استصراخه المسلمين لأخذ ثأر
عثمان ، ويستطيع الباحث حينما يتأمل هذا الشعر أن يستنتج أن
كثيرا منه ليس من نظم الشاعر وانما من وضع الأمويين عليه ،
وذلك حتى يثيروا المسلمين ضد المسئول عن مقتل عثمان رضى الله
عنه .

وربما كان من أبياته في هذا الاستصراخ والتي يمكن أن
تقال قسطا من التوثيق في نسبتها اليه قوله :

من سره الموت صرفا لا مزاج له
فليأت مأسدة في دار عثمانا
مستحقبي حلق الماذى قد سفعت
فوق المخاطم ييـض زان أبـدانا
شدوا السيوف بشنى فى مناطقكم
حتى يحين بها فى الموت من حانا
لعلكم أن تروا يوما بمغبطة
خليفة الله فيكم كالذى كانا

الى أن يقول :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسيحا وقرأنا
لتسمعن وشيكا فى ديارهم
الله أكبر يا ثارات عثمانا
وقد حاول الأمويون أن يستغلوا هذا الشعر فى صفهم
فأضافوا اليه على لسان حسان أبياتا تشير الى مكاتبتهم وتحمل على
ابن أبى طالب مسؤولية مقتل عثمان ، وهذه الأبيات هى :

وقد رضيت بأهل الشام زافرة
وبالأمير وبالاخوان اخوانا
انى لمنهم وان غابوا وان شهدوا
حتى الممات وما سميت حسانا
صبرا فدى لكم أمى وما ولدت
قد ينفع الصبر فى المكروه أحيانا

وأهم ما يلاحظه الباحث في رثاء حسان لعثمان رضى الله عنه
تأجيج عاطفته في هذا الرثاء على خلاف عادته في رثاء أبى بكر
وعمر ، بل انه يهجو قومه من الأنصار وخاصة بنى النجار لأنهم
لم يدافعوا عن عثمان وأيدوا الثوار الذين قتلوه . فيقول في
هذا الهجاء :

أوفت بنو عوف وأوفت نذرها
وتلونت غدرا بنو النجار
وتخاذلوا يوم الحقيقة انهم
ليسوا هنالك من الأخيار
ونسوا وصاة محمد في صهره
وتبدلوا بالعز دار بوار
أتركتموه مفردا بمضيعة
تتأبه الغوغاء في الأمصار
لهفان يدعو غائبا أنصاره
يا ويحكم يا معشر الأنصار
هلا وفيتم عندها بوعودكم
وفديتم بالسمع والأبصار
جيرانه الأدنون حول بيوته
غدروا ورب البيت ذى الأستار
كذلك يهجو الثوار الذين أحاطوا بمنزله ثم قتلوه فيقول :
أتركتم غزو الدروب وجئتم
لقتال قوم عند قبر محمد

فلبئس هدى الصالحين هديتهم
ولبئس فعل الجاهل المتعمد

ان تقبلوا نجعل قري سرواتكم
حول المدينة كل لدن مذود

أو تدبروا فلبئس ما سافرتهم

ولمثل أمر امامكم لم يهتد

لقد بكى حسان عثمان بكاء مرا وحزن عليه حزنا شديدا ،

لذلك اتسم شعره فيه بصدق العاطفة ، وغلبة الانفعال الجارف
عليه . يقول :

ان تمس دار بنى عثمان خاوية

باب صريع وباب مخرق خرب

فقد يصادف باغى الخير حاجته

فيها ويأوى اليها العرف والحسب

يا أيها الناس أبدوا ذات أنفسكم

لا يستوى الصدق عند الله والكذب

ثم تختفى أخبار حسان بعد مقتل عثمان ، ولا نجد بعد رثائه

له بيتا واحدا في علىّ سواء بمدح أو ذم أو رثاء ، ويظهر أنه مات

قريب موت على بن أبى طالب أو بعده مباشرة ، وكان الأمويون

في أواخر حياته يعطفون عليه رغم أن ابنه عبد الرحمن بن حسان

نشأ على هجائهم ، فلم يأخذوا الأب بجريرة الابن وهو الشيخ

المسن الضرير .

وكان بصر حسان قد كف في أواخر حياته ، وربما حدث ذلك

في أواخر خلافة عمر أو أثناء خلافة عثمان فابن قتيبة يشير الى انه كان قد كف بصره عندما كان معاوية واليا على الشام وأرسل رسوله الى جيلة بن الأيهم في بلاد الروم وكان قد تنصر أيام عمر ورحل اليها . وكان معاوية قد تولى هذه الولاية منذ أيام عمر . فقد سأل جيلة بن الأيهم الرسول عن صديقه القديم حسان بن ثابت فأجابه الرسول بأنه شيخ كبير قد عمى .

وجاء في الكامل عن أبي زيد سعيد بن أوس الأنصارى أن حسان حضر وليمة وقد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن يقوده ، فلما وضع الطعام وجيء بالثريد كان حسان يسأل ابنه : يا بني أطعام يد أم طعام يدين . فيقول الابن : بل طعام يد ، فيأكل . ثم جيء بالشواء ، فيسأل حسان أطعام يد أم طعام يدين . فيقول الابن : طعام يدين . فيمسك . وفي المجلس قينتان تغنيان بشعر حسان :

انظر خيلى يباب جلق هل

تؤنس دون البلقاء من أحد

فكان حسان ييكي لتذكره ما كان فيه من صحة البصر والشباب ، وأخيرا اختفى حسان من مسرح الحياة دون أن يشعر به أحد ، فقد كانت أحداث الفتنة وصراع الأحزاب قد شغلت المسلمين عن كل شيء ، فلم ينتبه أحد الى وفاة شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الذى كان علما في زمن جاهليته ، وعلما في عصر نبيه فاختلف المؤرخون في زمن وفاته حتى لقد تراوح اختلافهم بين أربعين عاما !

المراجع

- ١ - السمهوري : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى
- ٢ - جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام
- ٣ - أبو الفضل ابراهيم والبجاوى : أيام العرب فى الجاهلية
- ٤ - أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني
- ٥ - ابن هشام : السيرة النبوية
- ٦ - ابن قتيبة : أ - المعارف
ب - الشعر والشعراء
- ٧ - ابن سعد : الطبقات الكبير
- ٨ - ابن حجر العسقلاني : أ - أسد الغابة
ب - تهذيب التهذيب
- ٩ - ابن عبد البر : الاستيعاب
- ١٠ - حسان بن ثابت : ديوانه ، نسخته خطية بمعهد المخطوطات العربية
- ١١ - قيس بن الخطيم : ديوانه
- ١٢ - السهيلي : الروض الانف
- ١٣ - ابن عساكر : تاريخ دمشق
- ١٤ - الطبرى : أ - تاريخ الرسل والملوك
ب - التفسير
- ١٥ - الفهرست : ابن النديم
- ١٦ - ثعلب : المجالس
- ١٧ - ابن سلام : طبقات فحول الشعراء
- ١٨ - قلهوزن : قيام الدولة العربية ترجمة د/ محمد عبد الهادى أبو ريذة
- ١٩ - محمد حسين هيكل : حياة محمد
- ٢٠ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى
- ٢١ - احمد الشايب : تاريخ النقائص

الموضوعات

صفحة

٣

٧

١ — مقدمة

٢ — تمهيد

القسم الأول

حسان في الجاهلية

١٧	يشرب قبل الاسلام	: الفصل الأول
٢٦	نشأة حسان	: الفصل الثاني
٤٠	شعر حسان الجاهلي	: الفصل الثالث
٤٤	أ - حسان الشاعر القبلي	
٦٨	ب - حسان الشاعر المادح	
٨٢	ج - حسان الشاعر الانساني	

القسم الثاني

حسان في الاسلام

١٠٦	يشرب والثورة الفكرية الجديدة	: الفصل الأول
١٣٥	حسان في عصر الرسول	: الفصل الثاني
١٣٥	أ - اسلام حسان	
١٥٣	ب - حسان والأحداث	
١٦٦	شعر حسان الاسلامي	: الفصل الثالث
١٦٦	أ - حسان والمقدمات الطللية والغزلية	
١٦٩	ب - حسان ووصف الخمر	
١٧١	ج - حسان بين المدح والفخر	
١٨١	د - حسان وفن الهجاء	
١٨٩	هـ - حسان والرثاء	
١٩٩	و - حسان وفن المناقضة	
٢١٦	شعر حسان في عصر الخلفاء الراشدين	: الفصل الرابع